

الفصل الخامس

أعلام للشعراء

علي بن الجهم (١)

يرجع نسب علي بن الجهم إلى بني سامة بن لؤي القرشيين ، وقد نزل أحد أجداده مدينة مرو بخراسان واستوطن هذا البلد النائي مع من استوطنه من أبناء العرب الفاتحين لأواسط آسيا . وإلى هذا الموطن يشير علي بن الجهم في إحدى مدائحه للمتوكل ، إذ يفاخر بأنه من أهل خراسان الذين أدالوا للعباسيين من الأمويين قائلا (٢) :

مذهبي واضحٌ وأصلي خُراسا نُ
وعِزِّي بِعِزِّكم موصولٌ

ويبدو أن الجهم رحل عن موطن أجداده بخراسان مبكراً إلى بغداد مع بعض إخوته وأسرته طلباً للرزق وشغلاً ببعض الوظائف في الدولة . ويفتح له المأمون أبوابه ، ويولّيه بريد اليمن وبعض الثغور ويتولّى في عهد الواثق شرطة بغداد (٣) وفي ديوان أبي تمام أشعار في أخيه عثمان وابنه إدريس ، مما يدل - من بعض الوجوه - على أنه كان لهذه الأسرة بعض الجاه والوجاهة . ولا تُعرف بالضبط السنة التي أنجب فيها الجهم ابنه عليا ، ويغلب أن يكون مولده سنة ١٩٠ للهجرة وأن تكون بغداد مسقط رأسه ؛ ونراه في زعموة أظفاره يختلف من داره في شارع دُجَيْسِل

٢٤٩ والموشح للمرزياني ص ٣٤٤ وطبقات
الحنابلة لابن أبي يعلى ص ١٦٤ وقد طبع
ديوانه في المجمع العلمي العربي بدمشق خليل
مردم ووضع له مقدمة قيمة .
(٢) الديوان ص ٢٦ .
(٣) تاريخ بغداد ٧ / ٢٤٠ .

(١) انظر في علي بن الجهم وترجمته وأشعاره
طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣١٩
والأغاني (طبعة دار الكتب المصرية)
٢٠٣/١٠ ومعجم الشعراء المرزياني (طبعة
الجلبي) ص ١٤٠ ووفيات الأعيان لابن
خلكان في عل وتاريخ بغداد ١١ / ٣٦٧
وتاريخ ابن الأثير والنجوم الزاهرة في سنة

إلى كُتَّابِ بالحى كان يتعلم فيه الأطفال ذكوراً وإناثاً مجتمعين ، ولقنته ذات يوم بُنْيَةَ صغيرة بحاسنها الدقاق فكتب إليها في بعض الألواح (١) :

ماذا تقولين فيمن شقَّه سَهْرٌ من جَهْدِ حَبِكَ حتى صار حيرانا

وسرعان ما أجابته البُنْيَةُ في نفس اللوح على البديهة :

إذا رأينا محباً قد أضُرَّ به جَهْدُ الصبابة أو لينادِ إحسانا

وفى بعض الروايات أن هذا البيت أول شعر نظمه ، وكأن هذه البُنْيَةَ هى التى ألهمته الشعر وأنطقته . وكان لا يزال يملأ الدار على أبيه شغباً وعبثاً ولعباً ، فسأل معلمه فى الكُتَّاب أن يحبسه تأديباً له ، وأجابه المعلم إلى حبسه ، فاغتاظ على من أبيه غيظاً شديداً ، ولم يلبث أن كتب إلى أمه فى شِقِّ لَوْحٍ مستغيثاً (٢) :

يا أُمَّتَا أَفْدِيكَ مِنْ أُمَّ أَشْكُو إِلَيْكَ فِظَاظَةَ الْجَهْمِ

قَدْ سُرِّحَ الصَّبِيانُ كُلَّهُمْ وَبَقِيْتُ مُحْصُورًا بِبَلَا جُرْمِ

وتوسطت له أمه عند أبيه وأطلق سراحه ، وكأنما كان هذا الهجاء لأبيه إرهاباً بما سيصير إليه من حدة لسانه التى سيصلى فيها بعد ناراها . والحادثان كلتاها تدل على أن موهبته الشعرية تفتحت مبكرة ، فإنه لم يكد ينهى دروسه فى الكُتَّاب حتى كان قد أصبح شاعراً ينظم الشعر فى يسر . وكانوا يتعلمون فى الكُتَّاب شيئاً من علم الحساب ومن النحو والعروض وبعض سور القرآن وبعض الأشعار والأحاديث النبوية . ولا ريب فى أنه كان يغدو ويروح بعد ذلك مع الشباب إلى حلقات العلماء المتكلمين فى المساجد ينهل منها ، وربما اطلع على شىء من علوم الأوائل صنيع لداته فى عصره . وكانت فى المسجد الجامع حلقة كثيراً ما تختلف إليها وكثيراً ما اجتذبت ، ونقصد حلقة الشعراء إذ « كانوا يجتمعون كل جمعة فى القبة المعروفة بهم فى جامع بغداد ، يشدون الشعر ويعرض كل منهم على أصحابه ما يكون قد نظمه بعد مفارقتهم فى الجمعة السابقة » . وفى هذه الحلقة تعرف

(٢) الديوان ص ١٨٠ والجرم : الذنب .

(١) الديوان ص ١٨٤ .

على كثير من شعراء عصره وفي مقدمتهم أبو تمام الذي أصفاه ودّه وصوّر ذلك تصويراً رائعاً في شعره بمثل قوله^(١) :

إن يختلف ماء الوصال فماؤنا عذبٌ تحدر من غمامٍ واحدٍ
أو يفترق نسبٌ يوئلف بيننا أدبٌ أقمناه مقام الوالدِ

ولم يكد على يتجاوز العشرين ربيعاً حتى أخذ نجمه بين الشعراء المعاصرين له في الصعود ، وإذا هو يصبح من مُدّاح المعتصم ومن يحظون بالوفود عليه ، ويُعجَبُ به ، فيجعله على مظالم حلوان بالعراق^(٢) . ويفد على الواثق يمدحه ، غير أن ابن الزيات وزيره كان يزورُ عنه ، ويبدو أنه عزله عن عمله ، إذ نراه يصبُّ عليه جام غضبه^(٣) . وفي هذه الأثناء نراه يعقد صلة وثيقة بينه وبين عبد الله بن طاهر أمير خراسان ، مؤتسباً في ذلك بصديقه أبي تمام ، ويتوفى سنة مائتين وثلاثين للهجرة ، فيعزى فيه ابنه طاهراً خليفته على ولاية خراسان ويبكيه بكاء حاراً .

وتقبل الدنيا على ابن الجهم مع خلافة المتوكل سنة ٢٣٢ للهجرة إذ يصبح من أقرب الشعراء إلى نفسه ، ويتخذة جليساً ونديماً ، ويسرّ إليه بما يدور بينه وبين جواريه ومحظياتة من مثل محبوبة وقبيحة أم المعتز ، ويغدق عليه أمواله وجوائزه حتى ليروى الرواة أنه دخل عليه يوماً ويده درّتان نفيستان يقلّبهما تعجباً واستحساناً ، ويبالغ الرواة فيقولون إن الواحدة منهما كانت تزيد قيمتها على مائة ألف ، وأنشده ابن الجهم قصيدة جعلته يقدم له إحدى الدرّتين ، وكانت في يمينه ، والأخرى لا تزال في يساره ، فأسرع ابن الجهم يقول على البديهة :

بسرُّ من رآ إمامٌ عدلٍ تغرف من بحره البحارُ
الملكُ فيه وفي بنيه ما اختلف الليل والنهارُ
يُرْجى ويُحشى لكل أمرٍ كأنه جنةٌ ونارُ

(٢) الديوان ص ١١٨ .

(١) ديوان أبي تمام ٤٠٧/١ .

(٢) أغاني ٢١٠/١٠ .

يداه في الجود صَرَّتَانِ عليه كَلْتَاهِمَا تَغَارُ
لم تَأْتِ مِنْهُ الْيَمِينُ شَيْئاً إِلَّا أَتَتْ مِثْلَهُ الْيَسَارُ

واهتز المتوكل طرباً وأعطاه الثانية^(١). وقد يكون في منادمته للمتوكل وملازمته له ما يدل على أنه كان ظريفاً جميل المحضر. ونراه يتحول منذ اليوم الأول في خلافته داعية كبيراً من دعائه، بل لقد تحول إلى ما يشبه أداة إعلام، فليس هناك عمل ينهض به المتوكل إلا ويدعوله إن احتاج إلى دعوة، بل إنه ليبالغ في الدعوة له مبالغة مفرطة. وليس هناك عمل يستحق التنويه إلا ويهتف به في أشعاره ويشيد بإشادة بعيدة، وحتى هو إن غضب على بعض الوزراء أو بعض الكتّاب والعمال رأيناه يسقط عليهم بسياط أشعاره طالباً لهم التنكيل الشديد. وكان أول عمل عام نهض به المتوكل وقفه محنة القول بخلق القرآن على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضوع؛ فقد كان الخلفاء منذ المأمون جعلوا هذا القول عقيدة رسمية للدولة، وعسفوا بالفقهاء المنكرين لذلك وفي مقدمتهم أحمد بن حنبل عنفماً شديداً، حتى إذا ولي المتوكل وقف هذه المحنة التي أوشكت أن تؤدي إلى فتنة خطيرة، وبذلك أفل نجم أصحابها من المعتزلة الذين كانوا يُغرون الخلفاء بها وسطع نجم الفقهاء وأهل السنة. ولا يزال ابن الجهم يُشيد بهذا الصنيع، إذ رأب المتوكل صدع فتنة كان يخشى أن تتفاقم وتؤدي إلى شر خطير، ونراه في أثناء ذلك يكيل هجاء ذمياً للمعتزلة، حتى ليصفهم بالكفر على شاكلة قوله^(٢):

قام وأهل الأرض في رَجْفَةٍ يَخْبِطُ. فيها المقبل المدبرُ
في فتنة عمياء لا نارها تخبو ولا موقدها يفتُرُ
فقال والألسن مقبوضةٌ ليُبلِّغَ الغائب من يحضُرُ
إني توكلتُ على الله لا أشركُ بالله ولا أكفرُ
لا أدعى القدرة من دونه بالله حَوْلِي وبِهِ أَقْدِرُ

(١) الديوان ص ١٣٦ وانظر المقدم
الفريد (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر)

٣٢١/١
(٢) الديوان ص ٧٣.

وابن الجهم يزعم في الأبيات أن القول بأن القرآن مخلوق من شأنه أن يؤدي بالإنسان إلى الكفر والشرك بالله ، وقد مضى ينفي عن المتوكل القول بجرية الإرادة وأن الإنسان بصرف أفعاله كما تشاء له قدرته ، على نحو ما كان يؤمن المعتزلة ، فهو سني^١ يأخذ بأقوال أهل السنة ، وبأن كل شيء بقضاء وقدر مقدور على الإنسان لا حول له لإزائه ولا قوة . ونراه في نفس القصيدة يزعم بأن أبا بكر قضى على الردة الأولى في الإسلام وأن المتوكل قضى على هذه الردة الثانية للمعتزلة . وكل ذلك زلل منه ، وكان حريصاً به ألا يرسل لسانه في المعتزلة وأن يقف بعيداً عن خصومتهم ، أو على الأقل ألا يصمهم بوصفات الردة والشرك والكفر ، ولكنه كان قد وضع نفسه موضع الداعية للمتوكل وأعماله المحامى عنه أمام خصومه ، فبالغ وتورط في مبالغته أكثر مما ينبغي .

ومشكلة ثانية تورط فيها على نحو ما تورط ضد المعتزلة مندفعاً وراء المتوكل إذ كان شديد الانحراف عن علي بن أبي طالب وآله ، ومترّبنا في غير هذا الموضع ما يصور مدى هذا الانحراف إذ أمر في سنة ٢٣٦ بهدم قبر الحسين في كربلاء وهدم ما حوله من الدور وأن يُحجّرَ موضع القبر ويُزرع ما حوله ، ونرى ابن الجهم منذ ولي المتوكل الخلافة يُبسّئ ويبيد في أن العباسيين أولى الناس بالأمر وحكم الأمة . وحقاً بدأ ذلك عنده في مبادئه للمعتصم ، ولكنه أصبح الآن نغمساً مستمراً يوقعه على قيثارته كلما مدح المتوكل ، فبيّته أحق من البيت العلوي بالخلافة ، وهم أفضل الناس وخيرهم جميعاً علويين وغير علويين ، أما المتوكل فهو صفوة الله ، اختاره لعباده ، بل هو الميثاق والعهد الذي عاهد الله الناس عليه أن يسمعوا ويطيعوا ، يقول له^(١) :

أنت ميثاقنا الذي أخذنا
هـ علينا وعهده المستول
بك تزكو الصلاة والصوم والحج
حج ويزكو التسبيح والتهليل

وكان هذا الموقف من علي يثير عليه الشيعة ويجعلهم يبتنون له ضغينة مماثلة لما كان يبطنه له المعتزلة . وبجانب ذلك كان المتوكل كلما نكب أحداً زين عمله للرعية ،

ومعروف أنه نكب لأول عهده ابن الزيات وعذبه في سجنه حتى مات، وكذلك نكب عمر بن فرج الرُّخَجِيّ وكان من عِلِيّة الكتاب ومشاهيرهم، وبنوّه ابن الجهم بعمله وأنه إنما انتقم منهما للرعية، إذ كان ابن الزيات - في رأيه - ظالمًا جائرًا يُزْرَى على سنن النبي، وكان الرخجي يجرور في أحكامه وتصرفاته^(١). ويعقد المتوكل البيعة في سنة ٢٣٥ لبيته الثلاثة محمد المنتصر وأبي عبد الله المعتز وإبراهيم المؤيد عاهدًا إليهم بولاية العهد على التوالي، فيشيد ابن الجهم بهذا الصنيع وأن المتوكل أراد به صلاح الدين^(٢). وأمر المتوكل كما مرّ بنا في غير هذا الموضع لسنة ٢٣٥ بأن يلبس النصارى وأهل الذمة جميعًا الطبالسة العسلية تمييزًا لهم ويشدوا في أوساطهم الزناير وكتب بذلك إلى عماله في الآفاق، فقال ابن الجهم^(٣):

العَسَلِيَّاتُ الَّتِي فَرَّقَتْ بَيْنَ ذَوِي الرُّشْدَةِ وَالغَى
وَمَا عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يَكْثُرُوا فَإِنَّه أَكْثَرُ لِلغَى

وَأَذَى الْبَيْتَانِ النَّصَارَى وَأَهْلَ الذِّمَّةِ جَمِيعًا ، وَبِذَلِكَ لَمْ يُوغَّرْ صُدُورُ الْمُعْتَزِلَةِ وَالشَّيعَةِ عَلَيْهِ وَحَدَهُمَا ، فَقَدْ أُوْغِرَ أَيْضًا صُدُورُ النَّصَارَى وَأَهْلَ الذِّمَّةِ ، وَلَمْ يَبْقِفْ إِبْغَارُهُ الصُّدُورَ عِنْدَ هَذِهِ الْبَيْتَاتِ الثَّلَاثِ ، فَقَدْ أُوْغِرَ أَيْضًا صُدُورُ حَاشِيَةِ الْمُتَوَكِّلِ جَمِيعًا شِعْرَاءَ وَغَيْرِ شِعْرَاءَ ، وَكَانَ مِنْهُمْ مَرْوَانَ بْنَ أَبِي الْجَنْوِبِ وَابْنِ الْحَسَنِ بْنِ الضُّحَاكِ وَعَلَى بْنِ يَحْيَى الْمُنْجَمِ وَأَبُو الْعَيْسَاءِ وَابْنُ حَمْدُونَ وَعَزَّوْنَ وَبَخْتِيشُوعُ الطَّيِّبِ النَّصْرَانِيَّ وَعِبَادَةَ الْمُضْحَكِ ، وَسَاءَهُمْ جَمِيعًا أَنَّهُ كَانَ كَثِيرَ السَّعَايَةِ بِهِمْ إِلَى الْمُتَوَكِّلِ وَالذِّكْرُ لَهُمْ بِالْقَبِيحِ عِنْدَهُ ، وَتَصَدَّقَتْ لَهُ مِنْهُمْ الْبَحْتَرِيُّ وَمَرْوَانَ بْنَ أَبِي الْجَنْوِبِ يَهْجُوَانِهِ . وَأَخَذَ هُوَ لَاءَ النَّدْمَاءِ يَسْعُونَ بِهِ إِلَى الْمُتَوَكِّلِ ، فَتَارَةٌ يَقُولُونَ لَهُ إِنَّهُ يَجْمَشُ غُلْمَانِكَ وَيَلَاعِبُهُمْ ، وَتَارَةٌ ثَانِيَةٌ يَقُولُونَ لَهُ إِنَّهُ كَثِيرُ الْإِزْرَاءِ عَلَيْكَ . وَسَاعَدَهُمْ كَثِيرُونَ مِنْ حَاشِيَةِ الْمُتَوَكِّلِ مِمَّنْ لَمْ نَسْمَعْهُمْ ، وَكَانَ مِنْهُمْ الْمُعْتَزِلُ وَالشَّيْعِيُّ وَالنَّصْرَانِيُّ وَمَنْ يُوَدُّوْهُمُ انْتَقَمَ مِنْهُ شَرَّ انْتِقَامٍ ، غَيْرَ مِنْ كَانَ يَحْسُدُهُ عَلَى مَنْزِلَتِهِ مِنَ الْمُتَوَكِّلِ ، فَمَا زَالُوا يَقْعُونَ فِيهِ حَتَّى مَلَأُوا قَلْبَ الْمُتَوَكِّلِ غَيْظًا وَحَنَقًا عَلَيْهِمْ ، فَأَمَرَ بِجَبْسِهِ لِسَنَةِ ٢٣٧ وَنَوَاهُ بِرِسْلِ إِلَى أَخِيهِ مِنْ سَجْنِهِ بِقَصِيدَةٍ يَصُورُ فِيهَا تَجْلُدُهُ لِنَكْبَتِهِ وَشِكْوَاهُ مِنْ رِفَاقِهِ شِكْوَى أَلِيمَةٍ وَأَنَّ

(٣) الديوان ص ١٩٢ والفي في البيت

الثاني : الفيه وهو الغنية .

(١) الديوان ص ٣٩ وما بعدها .

(٢) الديوان ص ١٢٥ .

أحداً منهم لم يحام عنه في بلائه ، بل لقد خذلوه جميعاً ، وما يلبث أن يقول (١) :
تضافرت الروافض والنصارى وأهل الاعتزال على هجائي

وكانه كان يعرف في وضوح خصومه الذين ما زالوا يرجفون به عند المتوكل حتى أتى به في غياهب السجون ، إنهم المعتزلة والشيعة والنصارى من حواشي الخليفة ثم منافسوه من الشعراء والندماء وإن لم يتعرض لهم في هذه القصيدة بالذکر ؛ ويقول ابن المعتز : « إنما عسى بالروافض الطاهريين وبأهل الاعتزال بنى دؤاد وبالنصارى بختيشوع بن جبريل » (٢) . ومعروف أن الطاهريين هم أسرة عبد الله بن طاهر ، وكان ابنه محمد حاكماً لبغداد لعهد المتوكل ، وكان ابنه طاهر — كما أسلفنا — والياً لخراسان بعد أبيه عبد الله ، وأسرّها طاهر لابن الجهم كما سنرى عما قليل . وكان أحمد بن أبي دؤاد رأساً من رؤوس الاعتزال ، كان المتوكل يفسح له في مجالسه ، لأنه كان أحد من أخذوا له البيعة بعد وفاة الواثق ، فحفظ له المتوكل صنيعة ، على أنه لم يلبث أن نكبه هو وابنه أبا الوليد بعد نكبته لابن الجهم . أما بختيشوع فكان لا ينسى له ذكره العسليات في بيته السابقين وكان يكنى له عداوة شديدة .

وظل ابن الجهم في محبسه يتوسل إلى المتوكل أن يعفو عنه ، مرسلًا له بقصائد يصور فيها ولاءه له وإخلاصه ووفاءه ، مندداً بخصومه بل هاجياً لهم أشد الهجاء وأعنفه ، ورقّ له المتوكل فردّ إليه حريته بعد عام ولكن بطانة السوء من حوله دبّروا لابن الجهم مكيذة لا تُقبَلُ فيها التعلّات والمعاذير ، إذ اتهموه عند المتوكل بأن نفسه سوّلت له أن يهجو هجاء قبيحاً ، وثار المتوكل ثورة شديدة وأمر لسنة ٢٣٩ بمصادرة أمواله ونفيه إلى خراسان وكتب إلى أميرها طاهر بن عبد الله أن يُصلبَ يوماً إلى الليل ، فلما وصل إلى ضاحية من ضواحي نيسابور تسمى الشاذياخ حبسه طاهر بها ، ثم أخرج من محبسه وصلب يوماً إلى الليل مجرداً ثم أنزل (٣) ، وكان طاهر رأى في ذلك فرصة

(١) الديوان ص ٨٤ .

(٢) أغاني ١٠ / ٢٠٨ .

(٣) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٢٠ .

أن يقتص من ابن الجهم على هذا النحو البشع ، لوصفه السالف له هو وبيته في أشعاره بأنهم روافض أو شيعة غالية ، وكأنما يريد أن يسجل عليهم الخيانة للمتوكل ودولته . وظل في سجن طاهر بالشاذياخ إلى أن كتب إليه المتوكل بإطلاقه فأطلقه ، ومثّل ابن الجهم بين يديه ، يقول :

أطاهرُ إني عن خراسانَ راحِلُ ومستخبرٌ عنها فما أنا قائلُ

فقال له طاهر : لا تقل إلا خيراً فإني لا أفعل بك إلا ما تحب ، ووصله وحمله وكساه (١) ، وأخذ يبتغي إلى مودته كل الوسائل . ويبقى ابن الجهم في جواره مدة يتسمر فيها عنده ويلزمه في غدوه ورواحه إلى الصيد (٢) . وكان طبيعياً أن تترك هذه المحنة التي طالت سنواتها والتي شقى بها في بغداد وخراسان شقاء شديداً ظلاً كثيباً على نفسه حتى لنراه عقب ردّ حرّيته إليه يطيل المكث في القبور ، ويسأله رجل ما يجلسك بين المقابر ، فيجيبه (٣) :

يشتاق كلّ غريبٍ عند غربيته ويذكر الأهلَ والجيرانَ والوطنا

وليس لي وطنٌ أمسيت أذكره إلا المقابر إذ صارت لهم وطنا

وعاد ابن الجهم إلى العراق ، ولكنه لم يولّ وجهه نحو سامراء ؛ فقد ازورّ عنه المتوكل وأغلقت أبواب قصوره من دونه ، إنما ولّى وجهه نحو بغداد ، ونراه حينئذ يأسى لانصراف الناس عنه ، فقد تغير عليه الخليفة فتغير عليه الناس جميعاً ، ولم يعد يجد من بينهم الصديق الوفيّ ولا الأخ المخلص ، وحزن لذلك حزناً شديداً ، وأداه حزنه إلى أن يغرق أساه في كثوس اللهو عليها تنسيه كآثرته ، وأزم جماعة ماجنة من فتيان بغداد كانوا يختلفون إلى منزل مقيّنين (بخّاس) بالكرخ يسمى المفضل ، كان منزله مكتظاً بالجواري العابثات اللاتي يتفنّن في جذب الشعراء والشباب إليهن ، ومرت بنا في الفصل الثاني أبيات لابن الجهم من قصيدة يصف فيها هؤلاء الجواري وكيف كن يععبّثن بقلوب الفتيان ويسعرن أفئدتهم ناراً (٤) . ويسعى إليه المتوكل لسنة ٢٤٧ للهجرة فيرثيه رثاء حاراً . وماتوا في سنة ٢٤٩ حتى يتناقل العالم

(٣) أغاني ١٠/٢٢٤ .

(١) أغاني ١٠/٢٠٩ وما بعدها .

(٤) الديوان ص ٥٢ :

(٢) أغاني ١٠/٢٢٧ .

العربي المأساة التي سبق أن أشرنا إليها في الفصل الأول ، وهي مقتل البطلين عمر بن عبيد الله الأقطع وعلى بن يحيى الأرمني في حروب الروم ، ويتصايح المتطوعون لتلك الحروب في كل مكان ، ونجد ابن الجهم كأنما يثوب إلى نفسه أخيراً ، فيعتزم الجهاد في سبيل الله مع المجاهدين ، ويخرج في قافلة إلى حلب لغزو الروم ، ويحاول أن يتجه من حلب إلى بعض الثغور^(١) ، ويعترضه أعراب من بني كلب ، ويقاتلونه ، وهو يصيح فيهم بأشعار حماسية ملتهبة ، وتصيبه طعنة قاتلة ، فيقتل شهيداً دون غايته^(٢) .

وأشعار ابن الجهم موزعة بين المديح والاستعطاف والرثاء والهجاء والغزل والفخر والوصف والحكمة وجلُّ مدائحه في المتوكل ، فقد كاد لا يترك فيه فضلاً لغيره ، ومرَّ بنا آنفاً أنه ظل منذ توليه الخلافة سنة ٢٣٢ للهجرة حتى سنة سجنه وسخطه عليه يسجل كل أعماله ، بل لقد تحول داعية له ، يحامى عنه ويدافع ، بل يبرر ويزين ما يصدر عنه من فعل ، وظل ينوه بموقفه من المعتزلة وفتنة خلق القرآن : بمثل قوله^(٣) .

بِهِ سَلِمَ الْإِسْلَامُ مِنْ كُلِّ مَلْحِدٍ وَحَلَّ بِأَهْلِ الزَّبْعِ قَاصِمَةُ الظُّهْرِ
وبالمثل كان يندد بالشيعة والعلويين ، وكان ما يزال يرفع من المتوكل والعباسيين ، حتى ليجعلهم فوق كل الناس علويين وغير علويين ، وحتى ليقول^(٤) :

لَنَا فِي بَنِي الْعَبَّاسِ أَكْرَمُ أُسْوَةٍ فَهَمَّ خَيْرُ خَلْقِ اللَّهِ طُرّاً وَأَفْضَلُ
ويقول للمتوكل^(٥) :

وَلَنْ يُقْبَلَ الْإِيمَانُ إِلَّا بِحَبِّكُمْ وَهَلْ يَقْبَلُ اللَّهُ الصَّلَاةَ بِلَا طُهِرٍ
وكان لا يني يمدح المتوكل بحب الخير والرفق بالرعية والصفح عن الزلات ونشر الأمن الذي يجرر الناس من الخوف ونشر العدل الذي لا تصلح الحياة بدونه ، يقول^(٦) :

(٤) الديوان ص ٧٠ .

(٥) الديوان ص ١٤٨ .

(٦) الديوان ص ٣٥ .

(١) تاريخ بغداد ١١ / ٣٦٩ .

(٢) الأغاني ١٠ / ٢٣٣ وما بعدها .

(٣) الديوان ص ٢٢٢ .

ملكٌ باسطُ اليَدَيْنِ إلى الخِيَةِ ر صفوحٌ عن الذنوب غفورٌ
أمن الناس واستفاض به العذ لٌ فلا خائفٌ ولا مقهورٌ

وله في المتوكل وراء مدائحه تهنئة بعيد المهرجان ، ونراه يسوق في فاتحتها دعوة للصبوح بالخمير من أيدي الخُرَد الغيد ، ويُسَيِّد بمجالسها وما فيها من غناء تهفو إليه النفوس ، ثم يأخذ في مديح المتوكل وأن خلافته تفتح للناس أبواب الرحمة على مصاريعها وما تزال تمسهم بأجنحة من الرفق والعطف ، ويعان في صراحة صريحة أنه خراساني من شيعة بني العباس أصحاب الرايات السود شعارهم أو كما يسميها الخرق السود ، يقول (١) :

نحن أبناء هذه الخرقِ السُّودِ دِ وأهل التشيعِ المحمودِ

وأروع من هذه التهنة تهنة المتوكل بقضاء قائده بغا قضاء مبرماً على إسحق ابن إسماعيل النائر بأرمينية وهي أرجوزة أنشدها ارتجالاً ، وفيها يصور بأس الجيش العباسي في تلك الحرب ، وكيف كان يهدم الحصون هناك بمجانيق ترسل عليهم صواعق من حجارة السجيل ، يشير بذلك إلى سورة الفيل ، وقد تمخَّل الاقتباس منها أبياته (٢) ، وهي تدل على طواعية الشعر له وأنه كان يصدر فيه عن نَسَب غزير .

ويدخل ابن الجهم السجن ، ويتحول من مديح المتوكل إلى استعطافه ، ونراه في ميمية قدمها إليه يذكر سنَّه التي أشرفت على الخمسين ، وكيف أن الناس أخذوا ينكرونه لإنكار الخليفة له ، ويظل يأسى لقلة الصديق حتى يقول للمتوكل مستعطفاً (٣) :

أما وأمير المؤمنين لقد رمى الـ هدوٌ فلا نِكْساً ولا متهضماً
ولا ناسياً ما كان من حسن رأيه لخطَّة خَسَفِ سامنيها محتمماً
فخطلة الخسف والظلم والهوان ستنقشع عنه ، ولكنها لم تنقشع ، فعاد إلى

(٣) الديوان ص ٢١ .

(١) الديوان ص ٣٥ .

(٢) الديوان ص ١٧٦ .

استعطفه في لامية له استهلها بالحديث عن الصبر الجميل ، ويسترسل في مديحه ، ويقول إنه خير خلق الله وأعلمهم وأشدهم توخيًا للإنصاف ، وكأنه يشير إلى ما يأمل منه من العفو والصفح والغفران حين يقول^(١) :

يعاقب تأديباً ويعفو تطوُّلاً وَيَجْزِي عَلَى الْحُسْنَى وَيُعْطَى وَيُجْزَلُ
وَلَا يُتَّبَعُ الْمَعْرُوفَ مَنَّا وَلَا أَدَى وَلَا الْبُخْلُ مِنْ عَادَاتِهِ حِينَ يُسْأَلُ
رِعَاكَ الَّذِي اسْتِرْعَاكَ أَمْرَ عِبَادِهِ وَكَفَاكَ عِنَّا الْمَنْعَمَ الْمُتَفَضَّلُ

وينكل به طاهر بن عبد الله بن طاهر ، كما أسلفنا ، وكان يمدح أباه وبيته ، غير أنه زلَّ زلَّةً التي تحدثنا عنها حين أحسَّ أن الطاهريين لا يتوسطون له عند المتوكل ولا يهمهم أمره ، فساهم رافضةً ، وكأنما أراد من المتوكل أن يطير بهم طيرةً بطيئاً سقوطها ، وظل طاهر يسرها له ، حتى تمكن منه ، ويرسل له ابن الجهم من سجنه في الشاذياخ شعراً يستعطفه به من مثل قوله^(٢) :

إِنْ كَانَ لِي ذَنْبٌ فَلِي حُرْمَةٌ وَالْحَقُّ لَا يُلْفَعُهُ الْبَاطِلُ
وَحُرْمَتِي أَعْظَمُ مِنْ زَلَّتِي لَوْ نَالْتِي مِنْ عَدْلِكُمْ نَائِلُ

ولكن الزلة في رأى طاهر كانت أكبر من الحرمة ، فلم يابه باستعطفه ، حتى أمره المتوكل برد حرته إليه . حينئذ خشى معرفة لسانه ، فقرَّبَه منه وجعله من ندمائه وجلسائه .

ولابن الجهم مرات قليلة في مقدمتها مرثيته لعبد الله بن طاهر ، يعزى بها طاهراً ابنة ، مصوراً عظم الفادحة فيه ، حتى ليظن كأن ركناً من أركان الإسلام انتقض انتقاضاً ، في يوم عبوس من أخنى الأيام وأشدها بلاء على الأنام ، على نحو ما يقول في مطلعها^(٣) :

أَيُّ رَكْنٍ وَهَى مِنَ الْإِسْلَامِ - أَيُّ يَوْمٍ أَخْنَى عَلَى الْيَوْمِ -

ومضى يعزى آل الفقيده مصوراً عظم الكارثة فيه ، ثم انتقل إلى مديح طاهر

(٣) الديوان ص ١٨٢ .

(١) الديوان ص ١٦٥ .

(٢) الديوان ص ١٦٩ والأغانى ١٠ / ٢١٨ .

ابنه وأنه نعم الخلف لسلفه . وأهم من هذه المرثية مرثيته لصديقه الروحي أبي تمام ،
وهي أبيات أربعة صور فيها شاعريته وكيف عدت عليها الأيام ، حتى إن الشعر
ليبكيه بكاء مرّاً ، فقد هلك مثقفه ومرّوض قوافيه وجفّ غدِير روضته ، وجفت
بدائع فطنته ، يقول^(١) :

غاضتُ بدائعُ فطنةِ الأوهامِ وعدتُ عليها نكبةُ الأيامِ
وغدا القريضُ ضئيلُ شخصٍ باكباً يشكو رزيتَهُ إلى الأفلامِ
وتأوهتُ غُررُ القوافي بعده ورى الزمانُ صحيحها بسقامِ
أودى مثقفها ورائضُ صعبها وغديرُ روضتها أبو تمامِ

ومرّ بنا أنه رثى المتوكل رثاء حارّاً حين قتله بعض حرسه وحواشيه ، وهو يستهل
رثاءه له بوصف سحابة أطلّت العراق وملائته أمطاراً وخصباً ، غير أن عاصفة
هوجاء نَحَّتْهَا عنه ، وكأنما يرمز بها إلى المتوكل ، ثم أخذ يتفجع عليه تفجعاً مريراً ،
مزرياً على جنوده أن لم ينصروه . مندداً بمن قتلوه تنديداً شديداً^(٢) .

والهجاء عنده ليس كثيراً ، وهو يَحْزُرُ فيه وخز الإبر ، وأحياناً يطعن طعنات
دامية ، مما جعل ابن المعتز يقول : إنه كان هَجَاءً يضع لسانه حيث يشاء ، ويقول
المسعودي : « كان في لسانه فضل قَلِّ مَنْ سَلِمَ معه منه » ، ولعله يقصد تعرضه
للشيعة والعلويين والمعتزلة ، وكان يشتد هجاؤه حين يحس بأنه أذى أو وقعت عليه
إهانة ، ومن تعرّض لهم بالهجاء كثيراً أحمد بن أبي دؤاد شيخ المعتزلة ، لأنه سأله
الشفاعة حين أمر المتوكل بحبسه فقعد عنه ولم يهتم به ، حتى إذا نكبه المتوكل شمت
به هو وابنه أبي الوليد ، وسلّ عليهما لسانه بمثل قوله^(٣) :

يا أحمدُ بنَ أبي دُؤادِ دعوةٌ بعثتُ إليك جنادلا وحديدا
ما هذه البِدَعُ التي سميتها بالجهل منك العدل والتوحيدا
أفسدت أمرَ الدين حين وليته ورميته بآبي الوليد وليدا

(٣) الديوان ص ١٢٥ .

(١) الديوان ص ١٨١ .

(٢) الديوان ص ٥٦ .

وكان أبو الوايد يتولى المظالم بسامراء وعزله عنها المتوكل حين صادر أمواله وأموال أبيه لسنة ٢٣٧ وابن الجهم يشير بالعدل والتوحيد إلى مبدئين أساسيين في الاعتزال، إذ كان المعتزلة يوجبون العدل على الله مما أداهم إلى القول بفكرة خلق الناس لأفعالهم وحرية إرادتهم حرية تامة دون جبر أو إلزام ، حتى يثابروا ويعاقبوا على أعمالهم وما يأتون من الخير والشر . وأما التوحيد فأرادوا به تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين ، بحيث لا يحصره مكان ولا زمان . وكان مروان بن أبي الجنوب كثير التعرض له يذمه ويهجوّه ، ويقال إنه هجاه يوماً في مجلس المتوكل ، فأطرق ثم رماه بهذين البيتين المضمّمين (١) :

بلاءٌ ليس يشبهه بلاءٌ عداوةٌ غير ذى حسبٍ ودينٍ
يُبِيحُك منه عِرْضاً لم يَصْنُهُ وَيَرْتَعُ منك في عِرْضِ مصونٍ

وقد جرّده من الحسب والدين والعرض والشرف .

ولابن الجهم غزل كثير ، وهو تارة يضعه في مقدمات قصائده ، مديباً فيه لواعج حبه ، وتارة يفرده بمقطوعات تصور ما يثير الحب في فؤاده من العواطف والشاعر ، ومن مقدماته المشهورة التي طارت على كل لسان قوله في فاتحة إحدى مدائحه للمتوكل (٢) :

عيونُ المَهَا بين الرُّصافة والجِسرِ جَلَبْنَ الهَوَى من حيث أذرى ولا أذرى
أعدنَ لى الشُّوقِ القديمِ ولم أكن سلوتُ ولكن زِدْنَ جَمراً إلى جَمْرٍ

وهو تصوير بديع لما ترسل العيون من سهام الحب التي تفد من كل مكان مكشوف وخبيء من حيث يدرى ابن الجهم ومن حيث لا يدرى ، وقد أعدن له جذوة الحب القديم التي لا سبيل إلى إطفائها وأوقدن بجانبها جذوات كثيرة حديثة ، وقلبه يلتاع لوعة شديدة . ومضى يتحدث عن صواحب تلك العيون وكيف أنهن يُضْشِنَ من بعيد كالأهلة تتزود منها الأبصار ، ولامتاع سوى متاع النظر والخيال ،

وقد التهبته منه جوانح الفؤاد ، ويشكو المشيب ويذكر اقتطافه زهرات الحب ذات ليلة ، ثم يعود إلى الشكوى من الهجر والفراق ، ويجرى حواراً طريفاً عن حبه بين فتاتين تتبادلان الرأى في وصله وصدّه ، ومن طريف ما له في الغزل قوله (١) :

سَقَى اللهُ لَيْلًا ضَمَمْنَا بَعْدَ فُرْقَةٍ وَأَدْنَى فَوَادًا مِنْ فَوَادٍ مَعَذِبٍ
فَبِتْنَا جَمِيعًا لَوْ تَرَأَقُ زُجَاجَةٌ مِنْ الرَّاحِ فِيمَا بَيْنَنَا لَمْ تَسْرَبِ

وكانهما أصبحا روحين في بدن .

الفخر كثير في أشعار ابن الجهم ، وهو يردد الفخر بقرشيته وبقوته التي أغرته بأن يكون صاحب هو ويجون على الأقل في فترات من حياته ، وصور حين حبس وصلب عرياناً صلابه نفس غير مألوفة ، إذ ظلت نفسه قوية وظلت لا تنكسر أبداً ، ويستشعر هذا المعنى في عمق حين يفتتح إحدى قصائده التي استعطف بها المتوكل بقوله (٢) :

هِيَ النَّفْسُ مَا حَمَلْتَهَا تَتَحَمَّلُ وَلِلدَّهْرِ أَيَّامٌ تَجُورُ وَتَعْدَلُ
وَلَا عَارَ إِنْ زَالَتْ عَنِ الْحَرِّ نِعْمَةٌ وَلَكِنَّ عَارًا أَنْ يَزُولَ التَّجَمُّلُ

وكان لا يزال يشعر بقرشيته وأنه من أرفع الأسر العربية مكانة وأعلاها منزلة ، وكاد له خصومه عند المتوكل واستتبع كيدهم السجن والقيود والأغلال والظلم والعسف ، ولكنه احتمل وقاوم ، حتى ليقول لبعض صواحيبه (٣) :

فَلَا تَجْزَعِي إِمَّا رَأَيْتِ قَيْودَهُ فَإِنْ خَلَّخْتَ الرِّجَالَ قَيْودَهَا

إنها ليست قيوداً وسلاسل بل هي حلبي الرجولة والفتوة ، وهو خليق أن يتحلّى بها مهما عرضته لشر أو ضيق أو ضرر ، ويحاول مراراً وتكراراً أن يظهر تجلده واحتماله لأنقال السجن وقيوده ، فنفسه لا تضعف ولا تهون ، بل لعل نيران هذه المحنة قد زادت صلابه فوق صلابه ، إنها من جوهر كريم لا تنذبه المحن والخطوب

١ لابن المعتز ص ٢٢١ .

(١) الديوان ص ٩٥ .

(٢) الديوان ص ٥١ .

(٢) الديوان ص ١٦٢ وطبقات الشعراء

ولا كل ما يسام به من ضروب الحسف والعسف ، وبلغ ابن الجهم من ذلك حداً يفوق كل وصف حين يقول لصاحبه^(١) :

قالتِ حُبِسَتْ فَقَلْتُ لَيْسَ بِضَائِرِي حَبَسِي وَأَيُّ مَهْنَدٍ لَا يُعْمَدُ^(٢)
 أَوْ مَا رَأَيْتِ اللَّيْثَ يَأْلَفُ غِيْلَهُ كَبْرًا وَأَوْبَاشُ السَّبَاعِ تَرَدُّدُ^(٣)
 وَالشَّمْسُ لَوْلَا أَنهَا مَحْجُوبَةٌ عَنْ نَاطِرِيكَ لَمَا أَضَاءَ الْفَرْقَدُ
 وَالْبَدْرُ يُذْرِكُهُ السَّرَارُ فَتَنْجَلِي أَيَّامُهُ وَكَأَنَّهُ مِتْجَسَّدُ^(٤)
 وَالغَيْثُ يَخْضُرُهُ الْغَمَامُ فَمَا يَرَى إِلَّا وَرِيْقَهُ يِرَاحُ وَيَرَعْدُ^(٥)
 وَالنَّارُ فِي أَحْجَارِهَا مَخْبُوءَةٌ لَا تُصْطَلِّي إِنْ لَمْ تُثْرَمَا الْأَزْنُدُ
 وَالزَّاعِيَةُ لَا يَقِيمُ تَعْوِبَهُمَا إِلَّا التُّفَافُ وَجَذْوَةٌ تَتَوَقَّدُ^(٦)

وهو يمثل نفسه لصاحبه سيفاً مسلولاً وُضع في غمده ، بل كأنه أسد في أجمته وشمس في حجابها وبدر في سِراره ، بل لكأنه غيث مضممر في غمامه ونار مكنونة في زندها ورمح يصقله مثقفه . وهي صور تعبر عن نفس صلبة قوية وأنها ظلت على الرغم من محنة السجن سالمة لم يصبها وهن ولا خور . ويسنقى إلى خراسان ويسنجن ويصلبه أميرها يوماً عارياً وتقال له نفسه الصلبة ويزار منشداً^(٧) :

ما عابه أن بُزَّ عنه لِيَأْسُدُ فالسيفُ أهولُ ما يُرَى مسلولا
 فهو مثل السيف أهول وأهيب ما يُرَى حين يُجَرَّد من غمده ويصوب إلى الرقاب .

ولابن الجهم أشعار كثيرة في وصف الطبيعة الصحراوية وأطلالها ونوقها وفي وصف الطبيعة الحضرية ورياضها ورياحينها ، ومرت بنا في الفصل الماضي قطعة له بديعة

- (١) الديوان ص ٤١ والأغاني ١٠/٢١٣ .
 (٢) المهند : السيف .
 (٣) القيل : أجمة الأسد .
 (٤) السرار : آخر أيام الشهر .
 (٥) ريق الغمام : أوله . يراح : تكثر معه الرياح والمواسف المطرة .
 (٦) الزاعية : ضرب من الرياح المصية .
 (٧) الديوان ص ١٧٢ .

في وصف الورد وتهاديته ووصف شذاه العطر الذي يشقى القلوب الكليمة ، وله أشعار مختلفة في وصف اللهو والملاهي ، ومن قوله في وصف مجلس أنس^(١) :

الْوَرْدُ يَضْحَكُ وَالْأَوْتَارُ تَصْطَخِبُ . وَالنَّائِي يَنْدِبُ أَشْجَانًا وَيَنْتَجِبُ
وَالرَّاحُ تُعْرَضُ فِي نَوْرِ الرَّبِيعِ كَمَا تُجَلِّيُ الْعُرُوسُ عَلَيْهَا الدَّرُّ وَالذَّهَبُ

وقد مضى يصور نشوته بالراح وبالورد وبالغناء . وأنشدنا في الفصل الماضي قطعة من وصفه لقصر من قصور المتوكل وناפורته العجيبة ، وكذلك وصفه للعبئة الشطرنج وله قصيدة جيدة في وصف سفينة^(٢) .

وجعلته نكبته يكثر من التأمل في الحياة وفي سلوك الناس وأخلاقهم وأصنافهم ، مما جعل تجاربه تتسع وجعله ينثر منها كثيراً في أشعاره من مثل قوله^(٣) :

وَمَنْ طَلَبَ الْمَعْرُوفَ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ أَطَالَ عِنَاءً أَوْ أَطَالَ تَنْدُمًا
وَمَنْ سَامَحَ الْأَيَّامَ يَرْضَ حَيَاتِهِ وَمَنْ مَنَّ بِالْمَعْرُوفِ عَادَ مَذْمَمًا

وواضح مما أسلفنا من أشعار ابن الجهم أنه لم يكن ممن يتكلفون في أشعارهم ولا ممن يكثرون من ترصيعها بأصناف البديع وأصدافه ، وبما لا ريب فيه أن ملكاته كانت خصبة ، وكان كثيراً ما يلم بمعان دقيقة وصور طريفة مع سهولة الألفاظ ومع شفافيتها وصفائها ومع نصاعتها ورسانتها ومع جمال الجرس والأداء .

٢

البحترى^(٤)

هو أبو عبادة الوليد بن عبَّيد ؛ طائئ الأب شيباني الأم غلب عليه لقب البحترى نسبة إلى عشيرته الطائية ببحتر ، ولد سنة ٢٠٤ للهجرة بمسبج إلى

- | | |
|---|--|
| (١) الديوان ص ١٠٥ . | والموازنة بين الطائين للآدمي ، وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٤ ، ٤٥٨ |
| (٢) الديوان ص ١١٤ . | والشريشي على مقامات الحريري ٤٠/١ |
| (٣) الديوان ص ٢٠ . | وعيث الوليد لأبي العلاء ، وأخبار البحترى للصولي (طبع المجمع العلمي العربي بدمشق) = |
| (٤) انظر في البحترى وشعره الأغاني (طبعة الساسي) ١٨ / ١٦٧ ، والموشح للمرزبان | |

الشمال الشرقى من حلب على الطريق المؤدية منها إلى الفرات ، وقيل : بل وُلد بقريّة تجاورها تسمّى « زَرْدَفَنَة » والرأى الأول أصح ، لأن البحترى نفسه يكرّر كثيراً في شعره « مَسْبِج » مسقط رأسه ، وكانت تنزلها عشائر من طيبي* ، وهى كما يقول ياقوت فى معجم البلدان : مدينة كثيرة البساتين عذبة الماء باردة الهواء ، أقطعها الرشيد عبد الملك بن صالح الهاشمى ، وفى ديوان البحترى مدائح كثيرة لابنه محمد ولطائفة من أسرته عاشت فى منبج وحلب .

وليس لدينا أخبار عن هيئته وصورته إلا ما رُوِيَ عنه فيما بعد من أنه كان أسمر طويل اللحية ، وقد نشأ فى أحضان عشيرته يتغذى من فصاحتها ويبدو أنه اختلف مبكراً إلى الكتّاب ، فحفظ القرآن أو شطراً كبيراً منه ، كما حفظ كثيراً من الأشعار والخطب ، واختلف حين شبَّ إلى حلقات العلماء فى المساجد يأخذ عنهم اللغة والنحو وشيئاً من الفقه والتفسير والحديث وعلم الكلام . واستيقظت فيه موهبة الشعر مبكرة ، وسرعان ما أخذ يكثر من نظمه فى بعض من عرفهم من عامة أهل بلده أو كما يقول ابن خلكان من أصحاب البصل والبادنجان ، وامتد به طموحه فتجاوز به بلده إلى بلاد أكبر من حولها ؛ إذ نراه ينزل حلب ، وهناك تعرّف على علوة بنت زريقة التى شغفته حبّاً ، ويبدو أن زريقة كانت مغنية ، وتعرّف أيضاً على صديق يسمى الذفانى مدحه ببعض شعره ، وهجاءه فيما بعد لافترانه بعلوة ، على شاكلة قوله^(١) :

نُبِّئْتُهَا زُوِّجَتْ أَخَا خَنْثٍ أَغْنَى رَطْبَ الْأَطْرَافِ لَيْنِهَا

وظلت دار علوة قائمة بحلب ، حتى عصر ياقوت إذ يقول : « وفى وسط البلد "حلب" دار علوة صاحبة البحترى » . وقد يدل ذلك على يسار الذفانى وأنه شيد لها داراً فخمة . وظلت ذكراها لا تبرح ذاكرة البحترى حتى الأنفاس الأخيرة من

والفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة السابعة - طبع دار المعارف) وديوانه بتحقيق حسن الصيرفى ومقدمته (طبع دار المعارف) .

(١) الديوان ٤ / ٢٣٢٥ .

= وتاريخ بغداد ١٣ / ٤٤٦ ، ومعجم الأدباء لياقوت ١٩ / ٢٤٨ ، وابن خلكان ، ومرآة الجنان لياقوت ٢ / ٢٠٢ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٣ / ١٨٦ والنجوم الزاهرة ٣ / ٩٩ ، وحياة البحترى وفنه لأحمد أحمد بدرى ،

حياته . واتسع برحلاته إلى حمص ، وكأنما كان السَّعد معه على ميعاد ، فإذا هو يسمع بأن أبا تمام بها والشعراء يعرضون عليه أشعارهم ، فعرض عليه شعره ، فأقبل عليه ، وقال له : أنت أشعر من أنشدني فكيف حالك ، فشكا إليه خَلَّةً ، فكتب إلى أهل معرَّة النعمان : « يصل كتابي مع الوليد أبي عبادة الطائي وهو على بداذته "سوء حاله" شاعر فأكرموه » واستقبلوه استقبالا حسنا وظفَّوا له أربعة آلاف درهم^(١) . وفي رأينا أنه لم يصله بأهل معرة النعمان فقط ، فقد وصله أيضاً ببعض ممدوحيه إذ نراه يقبل على بعض من خصَّهم بمدحهم فيمدهم ، مثل آل حميد الطوسي في الموصل ، وخالد بن يزيد الشيباني وإلى أرمينية والثغور ، وأبي سعيد محمد بن يوسف الثغري الطائي الذي ولاه المعتصم حلب وثغور الشام والحزيرة ، وقد لزمه ولزم ابنه يوسف ، ويبدو أنه أول من اتصل بهم من ممدوحى أبي تمام . وتُخرَّج بعض الروايات ذلك مخرج القصص ، فتذكر أنه دخل عليه وأبو تمام عنده ، فأنشده قصيدته :

أفانق صبُّ من هوى فافيقاً أم خان عهداً أم أطاع شفيقاً

فردّها أبو تمام عليه من حفظه كأنها من نظمه ، وعرفه أبو تمام نفسه ، ولزمه البحرى^(٢) . ونظن أن الرواة زادوا فيها أنه لم يكن يعرف أبا تمام ، فعرفته به أسبق من ذلك كما أسلفنا ، بل هو الذى حثه على مديح أبي سعيد الثغري ولقائه له وهو عنده . ولم يكتب أبو تمام بتقديم الشاعر الشاب إلى بعض ممدوحيه ، فقد مضى يتعهد شاعريته ، ويلقنه كيف يجيد الشعر ويحسنه ، حتى خرَّجه فيه شاعراً ممتازاً راع معاصريه ، ويصرِّح بذلك البحرى معترفاً بجميل أستاذه إذ يقول^(٣) :

« كنت في حدائتي أروم الشعر وكنت أرجع إلى طبع ، ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه . . . حتى قصدت أبا تمام ، فانقطعت فيه إليه ، واتكلت في تعريفه عليه ، فكان أول ما قال لى : يا أبا عبادة تخيِّر الأوقات وأنت قليل الهموم صيفرٌ من الغموم . واعلم أن العادة في الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شيء أو حفظه في وقت السحر ، وذلك أن النفس قد أخذت حظها من الراحة ، وقسطها من

(١) أخبار البحرى ص ٥٦ ، والأغانى (٢) أخبار البحرى ص ٦٣ ، والأغانى ١٦٩/١٨ .
(٣) زهر الآداب للحصرى ١٠١/١ .

النوم ، فإذا أردت النسيب فاجعل اللفظ رقيقاً والمعنى رقيقاً ، وأكثر فيه من بيان الصبابة ، وتوجع الكآبة ، وقلق الأشواق ، ولوعة الفراق . وإذا أخذت في مدح سيد ذى أياذ ، فأشهر مناقبه ، وأظهر مناسبه ، وأبن معاطه ، وشرف مقامه وتقاص المعاني واحذر المجهول منها ، وإياك أن تشبين شعرك بالألفاظ الزرية .
وكن كأنك خيَّاط يقطع الثياب على مقادير الأجسام وإذا عارضك الضجر فأرح نفسك ، ولا تعمل إلا وأنت فارغ القلب . واجعل شهوتك إلى قول الشعر الذريعة إلى حسن نظمه ، فإن الشهوة نعم العين . وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين ، فما استحسنته العلماء فاقصده ، وما تركوه فاجتنبه ترشد إن شاء الله تعالى .

وكانما وضع أبو تمام نُصَبَ عيني البحرى دستوراً قويمًا لإحسانه صناعة الشعر ، بل إن هذا بعض الدستور الذى وضعه ؛ إذ لا بد أنه أوصى البحرى وصايا كثيرة حتى يتقن صناعته . وهو فى هذا الجزء من وصاياه ينصحه أن يتخير أوقات إلهامه ، ثم يصف له الجودة التى يقوم عليها النسيب والمديح جميعاً ، مع العناية بدقائق المعانى وجمال الألفاظ والأساليب ، ونظن ظناً أنه حين وجد فى تلميذه حسن الاستجابة ، واطمأن إلى أنه شاعر سيكون له شأن ، أخذ يعرفه لا على أهل معرفة النعمان فحسب ، بل أيضاً على ممدوحيه فى حلب والشام والجزيرة والموصل وأرمينية . وكاد محمد بن يوسف الثغرى بطل حروب بابك قديماً وحروب الروم حديثاً أن يستخلصه لنفسه ، وقد ظل يمدحه ويصف بلائه فى الثغور حتى توفى سنة ٢٣٦ للهجرة ، وتغنى طويلاً بمدح كاتبه محمد بن عيسى القمى ، ويتحول إلى ابنه يوسف الذى خلفه على إمارته الأخيرة فى أرمينية وأذربيجان ويكثر من مدائحه . ونظن ظناً أن من أوائل مدائحه لأبى سعيد محمد بن يوسف الثغرى رائيته^(١) التى يعزیه فيها عن المعتصم حين توفى سنة ٢٢٧ للهجرة . ويبدو أن أبا تمام دفعه بعد هذا التاريخ لزيارة سامراء بعد أن وثق من براعته الشعرية ، إذ نراه ينزل بها ، ونرى أبواب الخليفة الواثق ووزيره ابن الزيات وكاتبه الحسن بن وهب مفتوحة أمامه ، وكأن صداقة أبى تمام للأخيرين

(١) الديوان ٢/ ٨٨٢ .

هى التى فتحت له سريعاً تلك الأبواب ، وإذا هو يَمَسُّهُلُ بين أيديهم جميعاً مادحاً مجدداً .

ويتولى الخلافة المتوكل سنة ٢٣٢ للهجرة ويعصف بابن الزيات ويظل البحرى بعيداً خوفاً على نفسه ، وخاصة أنه كانت قد جرت على لسانه بعض أبيات يتعصب فيها للمعتزلة وقولهم بأن القرآن مخلوق ضد أهل السنة من مثل قوله فى بعض الخارجين على أبى سعيد الثغرى :

يرمون خالقهم بأقبح فعلهم ويحرفون كلامه المخلوقا

وسأله سائل : أكنت معتزلياً ، فأجابه : « كان هذا دينى فى أيام الواثق ثم نزعت عنه فى أيام المتوكل ، فقال له : يا أبا عبادة ! هذا دين سوء يدور مع الدول ! » (١) . فقد نزع عن نفسه لعهد المتوكل ثوب الاعتزال الذى كان يدين به الواثق ووزيره ابن الزيات ، وليس ثوب أهل السنة الذى فرضه المتوكل . وهو جانب سبى فى البحرى إذ كان متقلباً مسرفاً فى التقلب ، يلتمس المنفعة لنفسه ما وجد إلى ذلك سبيلاً . على كل حال أحسَّ بادئ الأمر أن أبواب المتوكل موصدة من دونه ، ولكن ذلك لم يدفعه عن طريقه ، فقد أخذ يمدح بعض خاصته وخاصة وزيره الفتح بن خاقان وهو يحيى بن على المنجم ، الذى اشتهر بوصله الشعراء بهما وأخذهم الصلوات السنوية منهما ، ووعده على أن يصله بالفتح ، ونراه يستنجز وعده فى بعض شعره (٢) ، وينجح على فى وصله بالفتح لسنة ٢٣٣ ويمدحه (٣) وينال جوائزه ، ولكن عينه لا تزال طامحة إلى مديح المتوكل ، ويلوِّح للفتح بطموحه ويعده الفتح ويتعجله أن يني بوعدة فى غير قصيدة من مثل قواه (٤) :

وعدت فأوشك نُجِحَ وعدك إني
وأنت ترى نُصَحَ الإمام فريضةً
من المجد إعجالُ المواعيد بالنُجْحِ
وإخبارُهُ عنى سبيلُ من النُصْحِ

هب الدار ردت رجع ما أنت قائله
وأبدي الجواب الربيع عما تسألله
انظر الديوان ٣ / ١٦١٠ .
(٤) الديوان ١ / ٤٤٦ .

(١) أخبار البحرى للصولى ص ١٢٣ .
(٢) الديوان ٢ / ١١٣٢ .
(٣) فى أخبار البحرى للصولى ص ٨٣
لأن أول قصيدة مدح بها البحرى الفتح بن خاقان
لسنة ٢٣٣ هى :

ويفتح له المتوكل بيد الفتح أبوابه ، ويستمع إليه وتتواتر صلواته وإقطاعاته عليه ، وكذلك إقطاعات الفتح وصلواته ، فقد كان ديوان الخراج إليه . وزراه يمدح الوزير الثاني للمتوكل عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، ولم يكده يترك أحداً من معاوني الفتح ومساعديه إلا ملحه ، فهو يمدح أبا نوح عيسى بن إبراهيم أحد كتّابه في دواوين الخراج وكان نصرانياً ، وكان نصرانيته لم تمنعه من مديحه ، وسزاه فيما بعد يكثر من مديح عبدون بن مخلد الراهب أخى صاعد وزير المعتمد . ويمدح أيضاً من كتاب الخراج والدواوين أعوان الفتح من أمثال أحمد بن المدبر وأخيه إبراهيم ، ويظل يمدحهما طويلاً ، حتى بعد خروج أحمد للعمل في دواوين مصر والشام . وكان قد ترك زوجته في منبج وأنجب منها ابنه أبا الغوث فكان كثير الرحلة إلى مسقط رأسه ، ويبدو أنه كان يقضى في وطنه الصيف كله فراراً من حر العراق ولتفحّه ، يقول^(١) :

نَصَبٌ إِلَى طَيْبِ الْعِرَاقِ وَحُسْنِهَا وَيَمْنَعُ مِنْهَا قَيْظُهَا وَحَرُّوْهَا
هِيَ الْأَرْضُ نَهَوَاهَا إِذَا طَابَ فَصَلُّهَا وَهَرُبُ مِنْهَا حِينَ يَحْمَى هَجِيرُهَا

وكان لا يترك وجيهاً ولا ولياً ولا صاحب خراج في طريقه من سامراء إلى منبج إلا ويقدم إليه مدياته ويأخذ جوائزته ، من مثل بنى حميد الطوسى الطائى وأبى سعيد الثغرى وابنه يوسف صاحبى أرمنية وأذربيجان وآل عبد الملك بن صالح الهاشمى ، بل يبدو أنه كان يمد رحلاته في الشام فيمدح بعض العمال والولاة مثل مالك بن طوق صاحب دمشق والأردن وأبى مسلم الكجى ، كما كان يمد رحلاته إلى بغداد وما وراءها من مدن العراق ، وزراه يكثر من مديح القائميين عليها من آل طاهر ، فهو يمدح منهم إسحق المصعبى ومحمد بن عبد الله بن طاهر الذى حكم بغداد منذ سنة ٢٣٧ ، وكذلك أخواه سليمان وعبيد الله ، وله فى الأسرة شعر كثير . ومن أكثر من مديحهم لعهد المتوكل قائده عبد الله بن دينار وابنه أحمد ، وإبراهيم ابن الحسن بن سهل وله فيه نحو عشر قصائد ، وله فى الفتح بن خاقان تسع

(١) الديوان ٢/٩٤٣ .

وعشرون قصيدة، ومن عمال المتوكل الذين مدحهم دُليل بن يعقوب النصراني^(١).
وتحوّل إزاء أعمال المتوكل وكل ما حدث في عصره إلى ما يشبه آلة راصدة، فهو
يسجل لسنة ٢٣٥ عقده ولاية العهد لأبنائه الثلاثة: المنتصر والمعتز والمؤيد قائلاً^(٢):

قدّامهم نورُ النبيِّ وخلفهم هدى الإمام القائم المحمود

ولا يترك نصراً على نائر إلا ويدونه، وكان بطارقة أرمنية خلعوا الطاعة وفتكروا
لسنة ٢٣٧ بيوسف بن محمد بن يوسف الثغرى والى إقليمهم، فوجه إليهم المتوكل
جيشاً سحقهم سحقاً وألقوا عن يد وهم صاغرون، ونوّه البحترى بهذا الانتصار
طويلاً. وكانت قد حدثت في أواخر العقد الرابع من القرن أو أوائل الخامس حروب
دامية بين قبائل ربيعة: تغلب وشيبان وغيرهما، واستطاع الفتح بن خاقان أن يحقن
الدماء بينها وأن يردّها إلى الطاعة، ومن الغريب أن لا تُعنى كتب التاريخ بهذا
الحدث العناية المنتظرة، بينما نرى البحترى يسجلها، وقد بلغ به الأسى أقصاه
إذ يرى هذه القبائل المنحدرة من أب وأصل واحد تفقد ما ينبغي أن يكون بينها
من البرِّ والعطف، فإذا هى تفرع إلى السيف وإلى القوة والقهر وسفك الدماء،
يقول^(٣):

وفُرسانٌ هيجاءٌ تجيشُ صدورُها بأخقادها حتى تضيق دُرُوعُها
تقتلُ من وترٍ أعزُّ نفوسها عليها بأيدي ما تكادُ تطيعُها
إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها تذكّرتِ القُرْبى ففاضت دموعُها
شواجرُ أرماحٍ تقطعُ بينهم شواجرُ أرحامٍ مَلُومٍ قَطوعُها^(٤)

فبعضهم يسفك دم بعض ويده لا تطاوعه، والدماء تفيض والدموع تسيل
والرماح تقطع علائق الأرحام. وأعاد المتوكل ووزيره الفتح الأمر إلى نصابه من الأمن
والسلم، فأغمدت السيوف وقرت القلوب الخافقة ونامت العيون المسهّدة. ويشب
أهل حمص بعاملهم^(٥) لسنة ٢٤٠ ويعودون إلى الوثوب والثورة في سنة ٢٤١ وينكل

(٤) الشواجر: المتشابكة المتداخلة.
(٥) تاريخ الطبرى ١٩٧/٩ وما بعدها.

(١) الديوان ١٦٨٩/٣
(٢) الديوان ٧٠١/٢
(٣) الديوان ١٢٩٩/٢

بهم المتوكل وسرعان ما يعفو عنهم ، ويسجل البحترى الحادث منوهاً بعفوه
قائلاً^(١) :

تداركتَ بالإحسان حمصَ وأهلها وقد قارقوا فعل الإساءة والخرق^(٢)
وترسل تذورة إمبراطورة القسطنطينية إلى المتوكل لسنة ٢٤١ وقدأ يطلب الفداء
بين أسرى الروم والعرب ، ويستقبل الخليفة الوفد في حفل كبير يصفه البحترى ،
ويطيل في وصف السباط الذي مُدَّ فيه وما علا وجوههم وسياهم من ذهول وحيرة^(٣) .
وكان المتوكل قد فكَّر لسنة ٢٤٣ في أن يجعل دمشق حاضرة الخلافة حتى يبتعد عن
سامراء ومنَّ بها من قواد الأتراك الطغاة ، ورحل إليها في سنة ٢٤٣ وتنبهوا
لمقصده فعملوا على العودة به إلى سامراء واضطراً أن ينزل على إرادتهم ، ويذكر
البحترى خروجه إلى دمشق وقدمه منها في غير قصيدة^(٤) . ويأخذ منذ سنة ٢٤٥ في
وصف قصوره التي سميت باسم المتوكلية والتي بلغت - كما مر بنا في الفصل الثاني -
نحو العشرين ، وكان من أهمها البرج الذي عرضنا له هناك ، ويتوقف البحترى
مراراً في مدائحه ليصف تلك القصور من مثل القصر المعروف بالجعفرى
والصبيح والمليح وشبداز^(٥) ، وما يزال ينوه بها مباهياً الأمم والشعوب . وفي
قصر الجعفرى لقي المتوكل ووزيره الفتح مصرعهما لسنة ٢٤٧ تحت بصر البحترى
وسمعه ، وهاله ما رأى ، مما جعله يرثى المتوكل برائيته زاعماً أنه دافع عنه بيديه ،
ويسجل على ابنه المنتصر - كما مرَّ بنا في الفصل الماضى - اشتراكه في المؤامرة
الباغية والفتك به ، قائلاً^(٦) :

أكان ولى العهد أضمرَ غَدْرَةَ فمن عجبٍ أن ولى العهد غادرُهُ

وحرى بنا أن نذكر أن البحترى لم يتورط مثل ابن الجهم في هجاء المعتزلة
إرضاء للمتوكل ولا في هجاء العلويين ولا في هجاء النصارى . وأظلمت الدنيا في
عينيه بعد مقتل المتوكل وصاحبه الفتح ، فخرج إلى المدائن يتعزى ، وهناك نظم

(١) الديوان ١٥٤٦/٣ .
(٢) قارقوا : ارتكبوا . الخرق : الحق .
(٣) الديوان ١٦٠٢/٣ .
(٤) الديوان ٧٠٧/٢ ، ٧٠٩ ، ٩٩١ ،
(٥) انظر الديوان ١٠٤١/٢ ، ٢٠٠٤/٣ .
(٦) الديوان ١٠٤٨/٢ .

سينيته مودعاً فيها حزنه وأساه ، وعاد إلى سامراء وتركها إلى منبج وأهله . ودفعه الطمع إلى أن يعود إلى المنتصر سريعاً وأن يقف بباب وزيره أحمد بن الحصبب متوسلاً إليه بكتابه الحسن بن مخلد حتى يقربه منه ويسترضيه له ، ويحببه إلى أمنيته ، فيعفو عنه المنتصر ، ويستمع إلى قصيدته فيه ، وكان قد رفع المحنة التي أنزلها أبوه بالعلويين ودفع الأذى عنهم والتعرض لشيعتهم ، فأشار إلى ذلك البحري منشداً^(١) :

وَألُّ أَبِي طَالِبٍ بَعْدَمَا أَذِيعُ بِسِرِّهِمْ فَابْتَدَعُرُ
وَنَالَتْ أَدَانِيَهُمْ جَفْوَةٌ تَكَادُ السَّمَاءَ لَهَا تَنْفَطِرُ
وَصَلَّتْ شَوَابِكَ أَرْحَامِهِمْ وَقَدْ أَوْشَكَ الْجَبَلُ أَنْ يَنْبَتِرُ

ويتوقى المنتصر بعد ستة أشهر من خلافته ويخلفه المستعين فيستبقى ابن الحصبب في الوزارة ، وسرعان ما يغضب عليه قواد الترك فتستصفى أمواله ويستشفى إلى جزيرة إقريطش (كريت) حينئذ نجد البحري يتنكر له ، ويبالغ في تنكره لإرضاء للمستعين وقواده ، فيؤلبهم عليه ، ويحشهم - كما مر بنا في الفصل الماضي - على قتله قائلاً^(٢) :

لَابِنِ الْخَصِيبِ الْوَيْلُ كَيْفَ انْتَبَرَى بِإِفْكِهِ الْمُرْدَى وَإِبْطَالِهِ

وهو جانب في البحري لاحظته بعض معاصريه - كما مر في غير هذا الموضوع - إذ تحدثوا عن كفره للإحسان وعدم وفائه ، حين يقلب الدهر مجننه لبعض مملوحيه أو حين يسبق إليهم الموت ، فإنه بدلا من أن يثير ذلك في نفسه ضرورياً من الشفقة والرحمة ، يسارع إلى الوقوف مع خصومهم الجدد أصحاب الحكم والسلطان ابتغاء ما في أيديهم من المال والنفع ، ويضرب القدماء لذلك مثلاً موقفه من الخليفة المستعين إذ كان يمدحه ، وينال جوائز حتى إذا خلعه قواد الترك وتولى المعتز الذي يرتجى نفعه أسرع إليه بقصيدة يمدحه فيها ويهجو المستعين هجاء مقذعاً بمثل قوله^(٣) :

(٣) الديوان ٢١٥/١ .

(١) الديوان ٢/٨٥٠ . ابذر: تفرق .

(٢) الديوان ٢/١٦٣٧ .

بكى المنبرُ الشرقُ إذ خارَ فوقه على الناس ثورٌ قد تدلّتْ غباغِبُهُ^(١)
 فكيف رأيت الحقَّ قرَّ قراره وكيف رأيت الظلم آلت عواقبه
 وكان المعتز من أقرب الخلفاء إلى نفسه ، فأكثر من مديحه ووصف قصوره
 وتسجيل الأحداث لزمه ، ومدح معه ابنه عبد الله وتوثقت بينهما الصداقة ، وما
 سجله من الأحداث لعهدده وعهد المستعين قتل القائد التركي أتامش وكاتبه شجاع^(٢)
 لسنة ٢٤٩ و قتل بُغا الشرابي^(٣) قاتل المتوكل لسنة ٢٥٤ ونراه يمدح القائد التركي
 وصيفاً^(٤) الكبير وابنه صالحاً^(٥) ويكرر حينئذ تشوقه إلى وطنه ، ويستأذن مراراً
 في الإلمام به . ويكثر من مديح الشاه ابن ميكال قائد المستعين ووزيره أبي صالح
 محمد بن يزداد وابنه عبيد الله وأخيه القاسم . ويضطر قواد الترك المعتز إلى خلع
 نفسه في سنة ٢٥٥ ويتولى المهتدي بعده الخلافة لنحو عام واحد ، ويغدو إليه
 ويروح بقصائده مصوراً تقاه وزهده وانصرافه عن الملامح ومتاع الحياة الزائل ونشره
 للعدل في ربوع دولته وإذلال جيوشه للروم ونزولهم على إرادته صاغرين . وسرعان
 ما ثار عليه الأتراك وخلعوه وولوا بعده المعتمد ، وهو آخر الخلفاء الذين مدحهم
 البحترى ، وكان الخليفة الحقيقي لعهدده أخاه الموفق ، وكان حازماً شجاعاً واسع
 التدبير ، وهو الذى قضى على ثورة الزنج وهزم يعقوب الصفار الثائر بليزان
 هزيمة ساحقة . ويصور البحترى في مديحه للمعتمد بأس جيوشه وانتصاراتها
 الحربية ، ويصف القصر الذى احتفل ببناؤه وسماه المعشوق ونوه به ، وله قصيدة
 رائعة يهني فيها الموفق بقمعه لثورة الزنج ، وفيها يخاطبه بقواه^(٦) :

أخذت بوثر الدين مثنى وظفرتُ يداك فلم يُفلتْ عدوٌ تطالبُهُ

ولم يترك حينئذ وزيراً ولا كاتباً كبيراً إلا ويمدحه ويأخذ جوائزه ، وكان
 المعتمد استوزر عبيد الله بن يحيى بن خاقان الذى وزر قديماً لأبيه المتوكل ، فازمه
 البحترى ، وفكّر في أن يرتجع منه الضياع الكثيرة التى كان المتوكل أقطعها إياه ؛
 فأكثر الشاعر من التوسل إليه ، حتى يتركها له ، وقصيدته^(٧) :

(٤) الديوان ١٤٠٣/٣ .

(٥) الديوان ٢١٧٤/٣ .

(٦) الديوان ٢٢٤/١ .

(٧) الديوان ٤٩٣/١ .

(١) خار : صاح . الغباغب : ماتغضن

من الجلد في منبت العشون أو اللحية حول النفن .

(٢) الديوان ٥٢٤/١ .

(٣) الديوان ٢٠١٩/٣ .

أمرتَجِعْ منى حباءِ خلائفِ توليتُ تسييرَ المديحِ لهم وحدى

تصور جزعه المفرط ، ويتوفى عبيد الله سنة ٢٦٣ ويخلفه الحسن بن مخلد ، فيمدحه بقصائد مختلفة شاكياً ضارِعاً ، فيجعل أمره إلى كاتبه السَّيِّبِي ، ولا يسارع إلى استرضائه ، فيشكوه إلى ابن مخلد بحائثه (١) :

لك الخلائقُ فينا السهلةُ السُّمُحُ والنَّيْلُ يَسْلُسُ للرَّاجِي وَيُنْسِرِحُ

ولا يكاد يسمعا الحسن حتى يبلغ بالبحرى ما يريد ، ويزيل المطالبة عنه (١) . ويترك الحسن الوزارة سريعاً ويتولاها سليمان بن وهب الذى استوزره المهتدى من قبل ، ويقدم إليه البحرى مدائح ، ويعصف به الموفق فى سنة ٢٦٥ فيحبسه ويصادر أمواله . ويخلفه على الوزارة أحمد بن صالح بن شيرزاد لمدة شهر واحد ، وللبحرى فيه مدائح مختلفة ، ويلى الوزارة بعده أبو الصمقر إسماعيل بن بلبل بينما يلى الكتابة للموفق صاعد بن مخلد ، ويكثر البحرى من مديح ابن بلبل ، ويهجو له فى بعض مديحه ابن شيرزاد الذى طالما مدحه ، ويمدح كاتبه جرادة على حين يذم كاتباً آخر كان نصرانياً يسمى إسرائيل ، ويلج على ابن بلبل فى قصائد كثيرة أن يأذن له بالرحيل إلى موطنه بمثل قوله (٢) :

وأعتقت الرُّقابَ فمُرُّ بعنقِ إلى بلدى وأنت به جديرُ

وأكثر حينئذ من مديح صاعد بن مخلد كاتب الموفق ، وكان من وجوه النصارى ، وحين استكتبه الموفق أعلن إسلامه وله فيه وفى أخيه عبدون الراهب وابنه أبى عيسى العلاء مدائح كثيرة . وكان أبو عيسى مثقفاً ثقافة واسعة بعلم الفلك ، مما جعل البحرى يكثر له فى إحدى مدائحه من ذكر النجوم (٣) . ومن كبار الكتّاب الذين مدحهم حينئذ أبو العباس أحمد بن ثوبة صاحب ديوان الرسائل . وفى أثناء ذلك كان يمدح كثيرين من العمال والولاة وأصحاب الخراج والكتّاب والقواد مثل وصيف الصغير وأذكوتكين والهيثم بن عبد الله التغلبي والى الموصل وأحمد بن محمد بن بسطام والى الشام وسيا الطويل والى حلب والعواصم ورافع بن هرثمة والى الرى

(٢) الديوان ١١٦/٢ .

(٣) الديوان ١٢٦٨/٢ .

(١) الديوان ٤٣٨/١ وأخبار البحرى

س ١١٠ .

وكتاب الجبل وأنفذ إليهم ذات مرة غلامه نصرأ ليطالبهم برسومه^(١) . ومن كان يمدحهم كثيراً أبو جعفر أحمد بن محمد الطائي والى الكوفة وآل نوبخت . وكان كثير الإلمام ببغداد ، وعنى بمدح كثيرين من آل طاهر حكماً كما مر بنا ، كما مدح بعض أعيانها وعلمائها مثل عبد الله بن الحسين بن سعد القطريلي والمبرد النحوي ، ومدح عبيد الله بن خرداذبة الجغرافي صاحب البريد بناحية الجبل . ويبدو أن أصحاب الخراج عادوا يتعقبون البحري ويطالبونه بخراج إقطاعاته الكثيرة ، مما جعله يسأل ابن بلبل المعونة في خراجه ، كما يسأل المعتمد نفسه قائلاً^(٢) :

أخشى الخراجَ وقد دعوتُ لعُظْمه ملكَ الملوك ورافدَ الرفادِ

ومضى عمال الخراج يُشقلون عليه ، وهو كل يوم يمشلُ بين أيديهم شاكياً ملحاً في أن يحطوا عن كاهله ما يطلبونه منه ، ولا يكاد يظفر بما يبتغي منهم ، فيفكر في مبارحة العراق ، ويمدح ابن طولون صاحب مصر والشام حينئذ ويصرح في مديحه له بما في نفسه قائلاً^(٣) :

فأصبحتُ في بغدادَ لا الظلُّ واسعٌ ولا العيشُ غَضٌّ في غَضارته رطبٌ
أمدحُ عمالَ الطَّسَاسِيجِ راغباً إليهم ولي بالشام مُسْتَمْتِعٌ رَغْبٌ^(٤)

وكل شيء يؤكد أن البحري كان قد أثرى ثراءً فاحشاً منذ عصر المتوكل ، فإنه نثر عليه أموالاً جمة وإقطاعات عديدة ، بالإضافة إلى ما أغدق عليه الفتح بن خاقان وغيره من رجال الدواوين ، وخاصة آل المدبر وفي مقدمتهم إبراهيم ، وكان هو وأخوه أحمد من كبار الموظفين في دواوين الخراج والضيايع ، ويقول الصولي إنه كان يوجب على إبراهيم في كل سنة أن يسقط أكثر خراجه أو يؤديه عنه ، وإنه استأخه مرة لشراء ضيعة فلامه لكثرة ضياعه ، وقال له : تكفيك ضياعك فقد

(٤) الطساسيج : الإقطاعات والضيايع ،

ويقال إن سواد العراق كان مقسماً إلى ستين

طسوجاً . رغب : متسع .

(١) الديوان ١٨٥٦/٣ .

(٢) الديوان ٧٣٤/٢ .

(٣) الديوان ١٢٢/١ .

كثرت وعظمت ، غير أن البحترى تمادى فى إلحاحه عليه ، وأنشده قصيدته التى يقول فيها^(١) :

وما زالتِ العيسُ المراسيلُ تنبَرى فيُقضى لدى آل المدبرِ حَاجُها^(٢)
ولم لا أعالى بالضياح وقد دنا على مداها واستقام اعوجاجُها
إذا كان لى تربيعُها واغتلالُها وكان عليك عُشرُها وخراجُها^(٣)

فأمر له بالمال الذى يشتري تلك الضيعة به^(٤) . وكلما تقدمنا مع البحترى فى الزمن بعد المتوكل زادت ضياعه ، وقد وصلته من المعتز ضياح وأهوال كثيرة ، وهو مع ذلك لا يزال يلحُّ عليه بالطلب حتى ليستهديه خاتم ياقوت ويُهديه إليه^(٥) . وكان المعتز قد أهدى إلى ابنه عبد الله إقطاعاً جاوره البحترى فى بعضه ، وكأنه لم يكتف بما صار فى يده ، فقد مضى يسأل عبد الله أن يهب له من إقطاعه الضيعة التى تجاوره ، وتشفّع إليه بأبيه وصنع فى ذلك أشعاراً ، منها قوله للمعتز :

يا واحدَ الخلفاء غيرَ مدافعٍ كرمًا وأحسنهم ندىً وصنيعا

فاتجه إلى ابنه عبد الله قائلاً له : اقضِ حاجة البحترى ، فوهبها له^(٦) . وتظل عنده شهوة تملك الضياح والإقطاعات ؛ إذ نراه يطلب من صاعد بن مخلد إقطاعاً^(٧) ومن ابنه أبى صالح ضيعة^(٨) ومن سليمان بن عبد الله بن طاهر حين أصبح حاكماً لبغداد إقطاعاً^(٩) . ويكثر عنده أن يسأل ممدوحيه أفراساً^(١٠) وسيوفاً^(١١)

أنه أمر بأن يزور بلده على خيل البريد

الرسمى . انظر الديوان ٣ / ١٥٣٦ .

(٦) أخبار البحترى ص ١٠٥ والديوان

١٣٠٩ / ٢ .

(٧) الديوان ٣ / ١٥٢٤ .

(٨) الديوان ٢ / ١٠٠٨ .

(٩) الديوان ٣ / ٢٠٤١ .

(١٠) انظر الديوان ١ / ٣٩٩ ، ٣ /

١٤٨٥ ، ١٧٤٤ ، ١٩٨٩ ، ٢٠٣٠٤ .

(١١) الديوان ٣ / ١٧٤١ .

(١) الديوان ١ / ٤٢٧ .

(٢) العيس : الإبل . المراسيل : النوق

السهلة السير .

(٣) الترييع : الإنماء . والعشر : عشر

الثمار وهو الخراج المفروض .

(٤) أخبار البحترى للصولى ص ١١٩ .

(٥) انظر التحف والهدايا للخالدين نشر

سامى الدهان ص ٧٣ ، وزهر الآداب ٣ / ٩٧ ،

وأخبار البحترى ص ١٠٨ وقد عدد فى القصيدة

عطايا المعتز له من الدنانير والخلع وكيف

وشراباً^(١) وثياباً^(٢) وغلماً^(٣). وبذلك نستطيع أن نوفق بين شُحِّه وما يقال من أنه كان يمشى في مركب من غلمانة^(٤)، فقد كانوا جميعاً هبات من ممدوحيه، وخصَّ نسيمًا من بينهم بغزل كثير، وكان قد أهداه إليه محمد^(٥) بن عيسى القمي كاتب أبي سعيد الثغرى، وفي الأغاني «أن البحترى جعله باباً من أبواب الخليل على الناس فكان يبيعه ويتعمد أن يصيِّره إلى ملك بعض أهل المروءات ومن يتسفقُ عنده الأدب، فإذا حصل في ملكه شيبَّ به وتشوَّقَه ومدح مولاة حتى يهبه له، ولم يزل ذلك دأبه حتى مات نسيم فكُنِيَ الناس أمره^(٦). وقد يكون أبو الفرج مبالغاً في ذلك، فإنه لم يثبت أن أحداً اشتراه سوى إبراهيم بن الحسن بن سهل، وقد ملحه بأشعار كثيرة يصور فيها ندمه، فرده عليه^(٧)، وألعل في ذلك كله ما يصور مدى ثراء البحترى من جانب وشدة طمعه من جانب آخر، وقد ظلَّ يُلْحِفُ في سؤال العطاء والضياع فكان طبيعياً أن يلفت إليه أنظار معاصريه، وحتى الخراج أو عشر الثمار كان ما ينبي يحتال في التخلص منه بالتضرع إلى وزير أن يدفعه عنه أو إلى كاتب كبير مثل إبراهيم بن المدبر. ويفكر في الإفادة من أحمد بن طولون - كما مرَّ بنا في غير هذا الموضع - فيمدحه لسنة ٢٦٩ ويمدح بعض كتابه وقواده مثل عفاص ويونس بن بَغْغَا وجعفر بن عبد الغفار ومحمد بن العباس الكلابي. ويُسَوِّقِي ويخلفه ابنه أبو الجيش خمارويه لسنة ٢٧٠ وترى البحترى في بعض قصيده^(٨) يجمع بين مديحه ومديح أبي الصقر إسماعيل بن بابل وزير المعتمد. وفي سنة ٢٧٢ يغضب الموفق على صاعد كاتبه ويقبض عليه وعلى ابنه أبي عيسى العلاء وأبي صالح وعلى أخيه عبدون ويصادر جميع أهولهم وأسبابهم^(٩)، ويتوفى أبو عيسى العلاء في الحبس بعد ثلاثة عشر يوماً ويكتب البحترى، ويرثيه بقصيدة يقول فيها^(١٠):

- | | |
|-------------------------------|------------------------------------|
| (١) الديوان ١/٤٠٧، ٤٢٧، ٤٩١، | بالعمدة لابن رشيقي ٢/١٥٠، |
| ٥٥٩، والأغاني ١٨/١٧١، | (٥) الديوان ١/٥٢٧، |
| (٢) الديوان ٢/٨٣٧، ٨٩٢ وأخبار | (٦) الأغاني ١٨/١٧١، |
| البحترى ص ١١٥، | (٧) أخبار البحترى ص ١٢٧ وما بعدها. |
| (٣) انظر مثلاً ٢/٩٨٦، ١٠٦٧، | (٨) الديوان ٢/٩٠٩، |
| ١٤٨٥/٣، | (٩) تاريخ الطبرى ١٠/١٠، |
| (٤) راجع الأغاني ١٨/١٧٠ وقابل | (١٠) الديوان ٣/١٥٥٣، |

ولم أرَ كالدنيا حليلاً وامق محباً متى تحسُن بعينه تطلّق
 تراها عياناً وهى صنعةٌ واحدٍ فتحسبها صنعةً لطيفٍ وأخرقٍ
 وحين سمع بعض خصومه البيتين شتّعوا عليه بأنه تشوّى يؤمن بالهوى النور
 والظلمة ، وشاع ذلك في عامة بغداد وكانت غالبية عليها حينئذ ، فخافهم البحترى
 على نفسه وخرج إلى منبج . ويبدو أن إقامته بها لم تطل وأنه عاد منها إلى سامراء
 وبغداد بعد حين إذ يحكى الصولى أن أول ما رأى البحترى سنة ٢٧٦ بمجلس المبرد
 في مسجده ببغداد . ونظن ظناً أن رحلاته إلى العراق لم تنقطع إلا بعد قبض الموفق
 على صديقه إسماعيل بن بلبل سنة ٢٧٧ وكأنما كانت هذه الحادثة سبباً في أن
 يصمم على مبارحة العراق إلى الأبد . وربما ولّى وجهه حينئذ نحو مصر وصاحبها
 خمارويه^(١) ، ويبدو أنه كان يلقاه في رحلاته بالشام ، ثم مدّها إلى مصر للقائه .
 ويؤكد نزوله بها كثرة مدائحه لكاتب خمارويه إسحق بن نصير . غير أنه كانت
 علته كسيرة فلم يقيم بمصر طويلاً وعاد إلى منبج ، وظل بها سنواته الأخيرة حتى
 لبيّ نداء ربه لعام ٢٨٤ .

وكان البحترى يأخذ بمحظوظ مختلفة من الثقافة الإسلامية والعربية في عصره ،
 وليس معنى ذلك أنه تخصص في أحد فروعها ، ولكنه كان يلم بها ، إذ كانت
 حلقاتها مفتوحة للصادر والوارد في جميع أنحاء العالم العربي حينئذ ، ويرمز إلى ذلك
 في شعره أننا نراه فيه يعرض لبعض اصطلاحات علم الحديث ، إذ يقول في مديحه
 لإبراهيم بن الحسن بن سهل^(٢) :

خُلِقَ أُتيتَ بفضله وسنائه طبعاً فجاء كأنه مصنوعٌ
 وحديثٌ مجدٍ عنك أفرط حسنه حتى ظننا أنه موضوع

وفى ذلك ما يؤكد صلته بالدراسات الإسلامية لعصره من حديث نبرى وتفسير
 وفقه ، وبالمثل كان على صلة بالدراسات العربية من تاريخية ولغوية ونحوية ، وهذا
 طبيعى لأنه أعد نفسه ليكون شاعراً مرموقاً ، فكان لا بد له أن يتزوّد من اللغة ومن

(١) النجوم الزاهرة ٣/ ٩٧ .

(٢) الديوان ٢/ ١٣١٦ .

النحو ومن التاريخ العربي الإسلامي ، ونراه في بعض شعره يعرض لعالم لغوى في عصره هو الفضل بن محمد اليزيدي ، رآه يزرى على جميل وكثير ، فيقول إنه لا علم له بالشعر ، وكل علمه إنما هو التعمق في الفاعل والمفعول^(١) .

وكان لا يبارى في ثقافته بالشعر ، مما جعله يضع فيه ديوان حماسة مشاكلة^٢ ومشابهة^٣ لأستاذه أبي تمام في حماسته المشهورة ، ويقول ابن النديم إن له كتاباً ثانياً في معاني الشعر ، غير أن هذا الكتاب سقط من يد الزمن . والكتاب الأول كاف في تصور إكبابه على الشعر القديم إكباباً منقطع النظير . وبالمثل كان يكب على دواوين الشعراء المحدثين ، مما أتاح له ثقافة شعرية واسعة . ولكن هل نستطيع بذلك كله أن نقول إن البحري كان مثقفاً بالثقافة الحديثة لعصره وما يتصل بها من علوم الأوائل ؟ حقاً له قصيدة ، كما أسلفنا ، أكثر فيها من ذكر النجوم ، ولكن هذا لا يعنى أنه كان ملماً بعلم الفلك والنجوم لعصره ، فقد كان منصرفاً عن هذا العلم وغيره من علوم الأوائل . وكان إذا ألم بها يلم من الظاهر إن صح هذا التعبير ، فهو لا يتعمقها أو هو بعبارة أدق لا يستطيع أن يتعمقها إذ كانت نشأته نشأة بدوية كما لاحظ القدماء ، وإن كان قد تحضّر فيما بعد ، ولكنه ظل بعيداً عن الفقه بالثقافة الحديثة ، وخاصة الثقافة الفلسفية والمنطقية .

وكانت قد أخذت تتكوّن في النقد والبلاغة — كما أشرنا إلى ذلك في غير هذا الموضع — ثلاث بيئات : بيئة محافظة مسرفة في المحافظة ترى أن الشعر ينبغي ألا يقاس إلا بالمقاييس العربية الخالصة ، وهي بيئة اللغويين ، وبيئة مجددة مسرفة في التجديد ترى أن يقاس الشعر بمقاييس البلاغة اليونانية ، وهي بيئة المتفلسفة ، ممن كانوا يترجمون عن اليونان أو يقرءون ما ترجم عنهم ، وبيئة معتدلة ، فهي لا تحافظ محافظة اللغويين ولا تجدد تجديد المتفلسفة ، بل تقف موقفاً وسطاً ، فهي تقرأ ما يترجم وهي تنظر فيما أثر عن العرب من ملاحظات بلاغية ، ثم تحاول أن تنفذ من ذلك إلى مقاييس البلاغة العربية تنزّها موازين دقيقة ، وهي بيئة المتكلمين ، على نحو ما نعرف عن الجاحظ في كتابه البيان والتبيين ، وانحاز الشعراء غالباً إلى البيئتين المحافظة والمعتدلة ، ولما انحاز أحد منهم إلى البيئة الثالثة

(١) الديوان ٣/ ١٨١٧ وما بعدها .

لأنها كانت تجافى الذوق العربي . غير أن هذه البيئة أخذت تشنُّ حملات شعواء على بيئة المحافظين وخاصة على ممثلها البحرى الذى لم يكن يتقن الثقافة الفلسفية ، ونرى بعض من يمثلون البيئة المعتدلة ينضمون إلى هذه الحملة بعامل المنافسة بينهم وبين البحرى وفى مقدمتهم ابن الروى . وكانت قد ساءت العلاقة بين البحرى وعبيد الله بن عبد الله بن طاهر صاحب شرطة بغداد ، ونظن ذلك حدث فى بعض فترات عزله عن وظيفته ، وسارع البحرى فلمَّح إليه فى بعض شعره بما يشبه الذم ، وردَّ عليه عبيد الله يمدُّه صديقه ابن الروى بأشعار ملتعبة ، ويبدو أنهما نددا بضعف ثقافة البحرى وأنه لا يعرف فلسفة ولا منطقاً ، مما جعله يهجو عبيد الله ببايئة يقول فيها^(١) :

كَلَّفْتُمُونَا حُدُودَ مَنْطِقِكُمْ وَالشَّعْرُ يَغْنَى عَنْ صَدَقِهِ كَذِبُهُ
وَلَمْ يَكُنْ ذُو الْقُرُوحِ يَلْهَجُ بِالْأَلْفِ مَنْطِقُ مَا نَوْعُهُ وَمَا سَبَبُهُ
وَالشَّعْرُ لَمْحٌ تَكْنَى إِشَارَتُهُ وَبِالْهَذْرِ طَوَّلَتْ خُطْبَتُهُ

وحقاً لم يكن امرؤ القيس الملقب بذى القُرُوح يعرف فلسفة ولا منطقاً لا لأنه صدق عن ذلك ، ولكن لأن عصره كله لم يكن يعرفهما ، ولو أنه تأخر به الزمن إلى عصر البحرى لعكف على الفلسفة والمنطق كما عكف ابن الروى وأضرابه وغدَّى بهما شاعريته غذاءً رفيعاً . وهو يلمح فى الشطر الأخير إلى ابن الروى وما اشتهر به من مطولات شعره .

وقد ساعد الذوق المحافظ الذى ساد فى العصر — كما أشرنا إلى ذلك مراراً — إلى أن ترجح كفة البحرى المحافظ كفة ابن الروى المجدد، وأن يقف فى صفه لا علماء اللغة وحدهم من أمثال المبرد بل كثرة كثيرة من الشعراء ، على حين كان ابن الروى يعيش لعصره فيما يشبه عزلة من معاصريه مع تفوقه على زميله تفوقاً واضحاً بملكاته الشعرية الحسنة ، ولكنه لم يكن يحتفظ للشعر بصياغته الموروثة وتقاليدها على نحو ما يحتفظ البحرى ، فوقع بعيداً عن ذوق الكثرة الغالبة من الشعراء والنقاد .

وليس معنى ذلك أن البحترى انفصل تماماً عن روح العصر ، فقد كان يلام بين شعره وبين تلك الروح عن طريق ثقافة واسعة بشعر أستاذه أبي تمام وشعر من سبقوه... أمثال مسلم وأبي نواس وبيشار، المرة تلو المرة ، والمرات تلو المرّات ، حتى أصبح ذلك جزءاً لا يتجزأ من جوهر شعره ، ولذلك نعته معاصروه طويلاً بأنه يغير على أشعار من سبقوه فيسلبها لنفسه ، وفي ذلك يقول ابن الرومي لأبي عيسى العلاء بن صاعد حين نشر الأمن في ربوع بغداد^(١) :

أيسرق البحترى الناس شعرهمُ جَهراً وأنت نكال اللّصّ ذى الرّيبِ

وأهم ديوان ألحَّ على تمثله ديوان أستاذه أبي تمام ، ولاحظ ذلك كله القدماء فأفردوا سرقاته بالبحث، وكان أول من عني بذلك عنده معاصره أحمد بن أبي طاهر؛ إذ استخرج له ستمائة بيت ردها إلى أصولها عند الشعراء وخاصة عند أبي تمام ، وقد بلغ ما سلبه منه في رأي ابن أبي طاهر مائة بيت . وتلاه بشر بن تميم بمصنف ذكر فيه سرقاته من أبي تمام ، وعليه اعتمد الآمدي في الفصل الذي عقده لهذا الجانب من سرقات البحترى . وفي رأينا أنه استطاع بذلك أن يتلافى نقص ثقافته الحديثة ، فقد خالط الشعراء المحدثين وخاصة أبا تمام مخالطة نادرة ، بحيث تمثل المعاني والأخيلة الحديثة ، بل قل بحيث استخلصها لنفسه ، وأخذ يصدر عنها كما يصدر الضوء عن الشمس والشذى عن الزهرة . وحقاً أنه يوجد بون بعيد بين عرض هذه الأخيلة والمعاني عنده وعند أبي تمام ، فقد كان أبو تمام يغمس أفكاره وأشعاره في ليقة المنطق ، فإذا القصيدة عنده توشك أن تتحقق فيها الوحدة العضوية ، فالمعاني والصور يتولد بعضها من بعض ولا خنادق ولا ممرات بين الأبيات ، على حين تكثر هذه الممرات والخنادق عند البحترى ، ولاحظ ذلك القدماء فقالوا إنه لا يحسن الخروج من موضوع إلى موضوع في الشعر^(٢) ، لسبب بسيط وهو أنه لم يكن يخضع في شعره للمنطق على نحو ما صرّح بذلك آنفياً . وظاهرة ثانية هي أنه جرى أستاذه في

(٢) الصدة لابن رشيق ١/١٥٩ .

(١) ديوان ابن الرومي (نشر كامل

كيلاني) ص ٣٥ .

الاحتفال بألوان البديع واستظهارها في أشعاره ، ولكن حين نقرن أى لون عنده إلى أصله عند أبى تمام سنجد مفارق واسعة ، فأبو تمام مثلاً ينجح إلى استخدام نوافر الأضداد في أشعاره كما مر بنا في كتاب العصر العباسى الأول ، ولم يكن البحرى يستطيع أن يتعمق هذا التعمق ولذلك نراه يكتب بالطباق بحيث إذا ذكر الوصل مثلاً ذُكر معه الهجر ، وإذا ذكر الذل ذكر معه الكبر ، وإذا ذكرت السهولة ذكرت معها الوعورة ، وإذا ذكرت الحرية ذكرت معها العبودية . ولون آخر يتعمقه أبو تمام هو الاستعارة على نحو ما مر بنا أيضاً في حديثنا عن العصر العباسى الأول ، ولم يكن البحرى يتعمق هذا اللون تعمقاً من شأنه أن يبعده عن الذوق القديم ، ولذلك كله قال النقاد إنه يحافظ على عمود الشعر العربى^(١) ، يريدون محافظته على أصوله الموروثة ، ومن تنمة ذلك عنده أنه لم يكن يكثر من ألوان البديع إكثار أبى تمام ، ولا كان يستطيع أن يتغلغل في دقائق الفكر والأخيلة على نحو ما كان يتغلغل أبو تمام بحكم ثقافته الفلسفية ومواردها التى لا تنضب في أشعاره ، ولذلك كان يشيع في أشعاره الغموض ، مما جعل القدماء يختلفون في فهم كثير من أبيانه وتفسيرها وتأويلها ، لكثرة ما توحى به من معان ، وهو اختلاف لا يضيع منك هباء ، بل إنك تجد في أثنائه ما يشبه أقواس قزح ممتدة في أشعاره ، وهى أقواس بهيجة ، تزهى بالفكر العميق والحيال الواهم البعيد .

ولكن إذا كان البحرى لم يستطيع أن يحقق لنفسه هذا المدى الرائع من الشعر والفن ، بسبب ضعف ثقافته الفلسفية ، فإنه استطاع أن يحقق لنفسه مدى مقابلاً لا يقل روعة ، وهو مدى الجمال الصوتى البديع ، بحيث استطاع أن يرتفع باصطفاء الكلمات والملاءمة بينها في الجرس بل بين حروفها وحركاتها . لاعمة رفعته إلى مرتبة موسيقية لم يلحظه فيها سابق ولا لاحق ، وكأنما كانت له أذن داخلية مرهفة ، تقيس كل حرف وكل حركة وكل ذبذبة صوتية ، فإذا به ينظم شعراً مصنى مروقاً ، شعراً يلد الألسنة والآذان والأذهان لذة لا تعادلها لذة . وقد وقفنا طويلاً عند هذا الجانب في الفصل الثانى من كتابنا « الفن ومذاهبه في الشعر العربى » وأوضحنا مدى مشاكلكته بين أصوات الألفاظ والقوافى في بعض القصائد وموضوعاتها كما أوضحنا

(١) الموازنة للامدى (طبعة الجوانب) ص ٢ .

مدى التوافق الصرقي عنده بين الحروف والكلمات والحركات والسكنات ، وكأنما أعطت الموسيقى الشعرية كل مفاتيحها وكل أسرارها للبحترى ، فإذا هو يوقع على قيثارته أروع ألحان عرفتها العربية^(١) . وبذلك استطاع أن يتلافى بقوة قصوره الثقافي ، فإذا هو يوضع على قدم المساواة مع أبي تمام ، وإذا النقاد يتقابلون في صفتين : صَفَّ يرفع أبا تمام إلى الذروة ، وهم المتفلسفة ومن يعنون بالتعمق في المعاني والأخيلة ، وصف يرفع البحترى إلى نفس المرتبة ، وهم أصحاب الآذان المرفهة الذين يُكبرون اللذة الصوتية ، وكان ينضم إليهم طوائف من المحافظين واللغويين ، وكان البحترى نفسه إذا سُئل عنه وعن أبي تمام قال : جيده خير من جيدي وردئي خير من رديته ، وهو يريد بجيد أبي تمام معانيه وأخيلته الدقيقة التي لم يكن أحد من أهل زمانه يستطيع أن يخلق في آفاقها ، أما رديته فيريد به بعض أبياته التي يضطرب فيها اللفظ لأنه لم يكن يُعنى بألفاظه وأصواته عناية البحترى .

والمديح أهم موضوع استنفذ شعر البحترى ، فقد عاش ، كما مرَّ بنا ، يمدح الخلفاء العباسيين من المتوكل إلى المعتضد ووزرائهم وولاتهم وقوادهم وكتّابهم ، وكأنما وقف نفسه على الإشادة بالدولة ورجالاتها ، بحيث يُعدُّ الشاعر الرسمي لها ، وكان طبيعياً لذلك أن ينتصر للعباسيين ضد خصومهم العلويين ، وأن يتغنى بذلك في أشعاره ، حتى يثبت ولاءه لهم وأنه يقف في صفوفهم مدافعاً عنهم مناضلاً بمثل قوله للمتوكل^(٢) :

شرفاً بنى العباس إن أباكم	عمُّ النبيِّ وعيْضُه المتفرِّعُ
إن الفضيلة للذي استسقى به	عمرٌ وشُفْعٌ إذ غداً يَسْتَشْفِعُ
وأرى الخلافة وهي أعظم رتبة	حقاً لكم ووراثَةٌ ما تُنزعُ
أعطاكموها الله عن علمٍ بكم	والله يُعْطى مَنْ يشاءُ ويَمْنَعُ

فالعباس وجد العباسيين وعم الرسول صلى الله عليه وسلم من العيص ومنبت الشجر الضخم ، يريد أنه من الأصول بينما على بن أبي طالب من الفروع ، ويستدل على

(٢) الديوان ١٣١١/٢ .

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي (الطبعة السابعة - نشر دار المعارف) ص ٧٧ وما بعدها .

فضله بأن عمر استسقى به في عام الرمادة حين أصاب الجزيرة القحط مستشفعاً به لربه ، ولم يَسْتَسْقِ بَابِن أَبِي طَالِب ، ويشير إلى حكم الميراث في الإسلام وما فرضه من حَجَبِ العَم لابن أخيه ، فالخلافة حق من حقوق العباسيين ، كما تقرر ذلك الشريعة الإسلامية ، وليس لأبناء على وحفدته أى حق في منازعتهم . ويكرر البحتري في مديحه للمتوكل وغيره من الخلفاء العباسيين تقواهم ، وعلمهم الذى ينشرونه في ربوع الدولة ، ومدى رعايتهم للأمة ورفقهم بها ورفقتهم لها وكيف يقومون على حمايتها بجنودهم وجموعهم الجرارة . وكان ينتهز كل فرصة ليديج قصائده فيهم ، فن ذلك قصيدته في وصف موكب المتوكل في أثناء خروجه لأداء الصلاة في عيد الفطر ، وقد صور في فاتحتها قوة الإسلام حينئذ مجسمة في جيش ضخم كان يحفّ بالمتوكل وكأنه جبال تتحرك ، فترجف الأرض وتهتز لضخامته وعدده الكثيفة ، ويتحدث عن جلال الموكب وما استدار حول المتوكل من هالات قدسية ومن محبة للشعب وإعظام ، يقول (١) :

افتنّ فيك الناظرون	فإضْبَعُ	يُومَى إِلَيْكَ بِهَا وَعَيْنٌ تَنْظُرُ
يجدون رويتك	التي فازوا بها	من أنعم الله التي لا تُكْفَرُ
ذكروا بطَّلعتك النبيّ	فهلَّلوا	لما طلعت من الصفوف وكَبَّروا
حتى انتهيتَ إلى المصلّى	لابساً	نور الهدى يبدو عليك ويظهر
فلو أنّ مشتاقاً تكلف فوق ما		في وسعه لسعى إليك المنبرُ

ولعل أهم وزير استصفاه لنفسه الفتح بن خاقان ، فله ألف ديوانه الحماسة ، وقد عاش نحو خمسة عشر عاماً يمدحه منوهاً بسياسته وحزمه وشجاعته وأناته في تسديد الأمور ، وعونه للضعيف وردده للمظالم ونشره للعدل الذى لا تصلح حياة الناس بدونه وبُعد غَوْرِهِ ويقظته وكفايته لحمل أمانة الحكم على خير وجه ممكن ، مع تقواه وتواضعه ومع صياناته للثغور وحطّمه بجيوشه للشوار والأعداء حطماً لا يبق ولا يذر ، ومع أخلاقه الرفيعة التى تتحلّى بها نفسه الأبية ، وكان ربما بدر منه ما يجعل الفتح ينصرف عنه . فكان يعتذر له بأشعار رائعة ، سبق أن صورناها في الفصل الماضى . ومديحه

فيه يكتظ بعاطفة حقيقية ، فقد كان يكنّ له ودّاً وحبّاً وإخلاصاً ، وكان ما يني يتغنّى بمدحيه ، ومن طريف قوله فيه مصوراً هيئته^(١) :

إذا ما مَشَى بين الصفوف تقاصرت
رؤس الرجال عن طولِ سَمِيدِ^(٢)
وإن سار كَفَّ اللحظُ عن كل منظرٍ
سواه وُغِضَ الصوت عن كل مَسْمَعِ
فلست ترى إلا إفاضةً شاخصٍ
إليه بعينٍ أو مشيرٍ بإصبعِ^(٣)

ومرّ بنا أن أول نابه اتصل به وخصه بمدحيه محمد بن يوسف الثغرى ممدوح أبي تمام الذي كان في مقدمة من قمعوا ثورة بابك الخرمي ، كما كان في مقدمة جيوش المعتصم في غزوه لعمورية ، وقد ظل ينازل الروم ويمحق جموعهم حتى وفاته سنة ٢٣٦ . وقد سجل البحترى حروبه وانتصاراته القديمة والحديثة جميعاً ، مجسماً بأس جيوشه ، وكيف كانوا يتهافون على الوغى كما يتهافت الفراش على النار ، لأنهم أبناء موت يطرحون أنفسهم تحت رحاه ، فلا تطحنهم وإنما تطحن أعداءهم طحناً ، وله في تمجيد شجاعة محمد بن يوسف الثغرى أشعار وقصائد كثيرة ، ومن طريف ماله في تصوير رباطة قلبه وسكون نفسه في الحرب قوله^(٤) :

لقد كان ذاك الجأش جأش مسالمٍ
على أن ذاك الزيّ زيّ محاربٍ
تسرّع حتى قال من شهد الوغى
لقاء أعاد أم لقاء حبايبٍ
وصاعقة في كفه ينكفي بها
على أروُس الأقران خمس سحائب
فجأشهُ مطمئنٌ ونفسه هادئة ، حتى ليظن من يراه أنه في سلّم وأمن ودعة
مع أن الزيّ زيّ محارب باسل ، وإنه ليُقبل على ميادين الحرب إقبال الحب على
حمى معشوقته هائناً مغتبطاً ، وإن السيف في يده ليشبه أدق الشبه صاعقة تسقط
على الأعداء بشواظها من أصابعه الخمس ، وكأنها خمس سحائب ماتني ترسل
عليهم الصواعق المدمرة . والبطل الثاني في ديوان البحترى هو أحمد بن دينار ، وقد
سجّل بطولته في معركة بحرية دمر فيها بأسطوله الأسطول البيزنطي تدميراً ذريعاً ،
ومن عجب أن الطبرى وغيره من مؤرخى العرب لم يدونوا هذه المعركة الخطيرة ،

(٣) الإفاضة : الاتجاه بالبصر .

(٤) الديوان ١/ ١٧٨ .

(١) الديوان ٢/ ١٢٣٩ .

(٢) السميع : السيد الكريم الشجاع .

ولا أشاروا إليها ، والمظنون أنها كانت لعهد المتوكل ، ولعل في تسجيل البحترى لها ما يؤكد ما قلناه مراراً من أن شعر المديح عند العرب يُعَدُّ في بعض جوانبه وثائق تاريخية مهمة ، وفيها يقول البحترى مصوراً زحف ابن دينار بمركبه « الميمون » ومن حوله المراكب تغص بجنوده البحريرين الذين سحقوا الأسطول البيزنطي وجنوده محققاً (١) :

غدوت على الميمون صُبْحاً وإِنَّمَا
وحولك رَكَابُونَ للهُول عاقروا
صَدَمْتِ بِهِم صُهَبَ العَثَانِينَ دُونِهِمْ
يسوقون أسطولا كَأَنَّ سَفِينَهُ
فَمَا رِمْتِ حَتَّى أَجَلَّتِ الحَرْبُ عَن طُلِّي
غدا المَرَكَبُ الميمونُ تحت المظفَرِ
كثوس الرَدَى من دارعين وحُسْرٍ (٢)
ضرابُ كإيقاد اللَّظَى المتسَعِرِ (٣)
سحائبُ صَيْفٍ من جَهَامٍ ومُظْمَرِ (٤)
مقطعةٍ فيهم وهامٍ مطيرٍ (٥)

وكل شيء يشهد بأن الشعر كان لا يستصعب على البحترى ، فقد كان يتدفق على لسانه تدفقاً ، ومع ذلك يقال إنه نقل كثيراً من مدائحه ، حتى ليبلغ ذلك عشرين قصيدة ، إلى مدح أناس جدد (٦) . وقد يكون في ذلك مبالغة ، على أننا نجد في الديوان رائية مرددة بين أبي الصقر إسماعيل بن بلبل ، والخضر بن أحمد والى الموصل ، واختلفت لذلك رواية بعض أبياتها (٧) . ويدخل في هذه الظاهرة عند البحترى ما قيل من أنه هجا كثيرين ممن مدحهم ، حتى ليبلغ بهم بعض الرواة أربعين شخصاً (٨) ، وقد عرضنا لذلك في غير هذا الموضوع ، ولا شك في أن في العدد مبالغة .

وفي ديوانه أهاج مختلفة ترجع إما إلى حرمانه من جائزة ، وإما إلى كفران صنيعه عند بعض معاصريه ، وإما إلى منافسة بينه وبين الشعراء وخاصة من كان منهم

(٥) رام يريم عن المكان: زال عنه وفارقه .

الطل: الأعناق . الهام : الرووس .

(٦) الموشح ص ٣٣٦ .

(٧) الديوان ٨٧٠/٢ وما بعدها .

(٨) الموشح ص ٣٣٦ .

(١) الديوان ٩٨٢/٢ .

(٢) الردى : الموت . الدارع : لابس

الدرع . الحاسر : عكس الدارع .

(٣) صهب العثانين : شقر الحى ، ويريد بهم

الروم .

(٤) السحاب الجهام : الذى لا ماء فيه .

يتعرض لشعره بالذم والنقد اللاذع . ويلاحظ أبو الفرج الأصبهاني في ترجمته أن بضاعته من هذا الفن قليلة ، ويرَوَى عن ابنه أبي الغوث أن السبب في ذلك أن أباه أحرق هجاءه في الناس خوفاً من مغبة عدائهم له ولأبنائه ، وكان هذه الرواية لم تعجب أبا الفرج ، فقد عاد يؤكد أن أكثر هجائه ساقط غث الألفاظ ركيك لا يشاكل طبعه ولا يليق بمذهبه^(١) .

وبالمثل الفخر عند البحرى ضعيف ، هو حقاً يفخر في بعض قصائده بآله وعشيرته بجزر وقبيلته طيبي ناعتاً لهم بالكرم والشجاعة والكثرة والحصافة ، ولكنه لا يصدر في ذلك عن إيمان قوى بالمجد ، وكأنما كانت عصبية القبيلة ضعيفة ، بل لقد كان إحساسه بعروبته أيضاً ضعيفاً ، ومرت بنا في الفصل السالف قصيدته في إيوان كسرى وبكاؤه لأجداد الفرس ، وكأنما لم يكن يستشعر شيئاً من الإحساس العميق بالأجداد العربية في مقابل الأجداد الفارسية ، ولعله من أجل ذلك كان كثيراً ما يسترسل في إشادته بالأصول الفارسية لبعض ممدوحيه ، على نحو ما يلقانا في مديحه للحسن بن سهل بمناسبة عيد المهرجان ، وله يتوجه بالخطاب قائلاً^(٢) :

إن للمِهْرَجَانِ حَقًّا عَلَى ك ل كَبِيرٍ مِنْ فَارِسٍ وَصَغِيرٍ
عِيدُ آبَائِكَ الْمَلُوكِ ذُو النَّبِيِّ جَانِ أَهْلِ النَّهْيِ وَأَهْلِ الْخَيْرِ^(٣)

ويعدد طائفة من هؤلاء الملوك في مقدمتهم يَزْدَجَرْدُ ، وكسرى ، وأردشير ، ويصور ما كان لهم من أبهة الملك وما كانوا يغدون ويروحون فيه من السندس والحريير . وحتى العاطفة الإسلامية بدورها نجدها ضعيفة عند البحرى ، إذ امتدح كثيرين من النصارى على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع .

وذكرنا في الفصل السالف مرثيته للمتوكل ، وأوضحنا كيف أعلنها ثورة مدوية على قاتليه وولى العهد الذى ناصرهم ، وقد استهلها بوصف قصر الجعفرى الذى قُتِلَ به الخليفة وما حُتِلَ عليه من سواد وكآبة ، حتى غدا كأنه ماتم كبير ،

(١) الأغاني (طبعة السامى) ١٦٧/١٨ . (٢) الخير : الكرم والشرف .

(٢) الديوان ٨٨٦/٢ .

ويصور فزع سيدهاته الجميلات حين علمن بالخبر الفاجع وكيف انتهكت حرماته
ثم يصف القتل والقتلة ووصفاً مؤثراً . وله مرثية رائعة يرثي بها طائفة من بني
حميد الطوسي خسرُوا صرَعَى في ميادين الثغور دفاعاً عن العرَين العربي ،
وفيهم يقول (١) :

قُبورٌ بأطرافِ الثُّغورِ كأنما مواقعُهُم منها مواقعُ أنجم-
مضوا يستلذون المنايا حفيظةً وحفظاً لذاك السؤدد المتقدم
وكلُّهم أفضى إليه حِمَامُهُ أميراً على تدبير جيشِ عرمرم (٢)
مساعٍ عظامٌ ليس يبلى جديدها وإن بليتٍ منهم رمائمٌ أعظم

والمرثية بكاء حار لهؤلاء الأبطال الذين استشهدوا تحت ظلال السيوف فداء
لوطنهم بأرواحهم واستبسالا بعد أن أذاقوا الأعداء كثوس الموت دهاقاً .

واشتهر البحترى بإجادته للغزل ، ومرَّ بنا أنه أحبَّ في شبابه عتوة الحلبية
وظلت ذكرها لا تبارحه ، وظلت تستولى على قلبه ، وكانت قد صبت إليه كما صبا
إليها وبادلته ودأ بود ، ثم تزوجها الذفاني كما أسلفنا ، فسلت عنه ، ولكنه لم يسئل
عنها ، وفي ديوانه مقطوعة يهجوها بها قد يكون نظمها فيها ساعة غضب انتابته ،
وإن كنا نظن ظناً أنها منحولة عليه ، فقد ظل قلبه لها في سامراء وبغداد كما ارتحل
عنها ، فهو لا يني يذكرها بمثل قوله في مقدمة ملحه للمعتر (٣) :

كم ليلةٍ فيكِ بيتٌ أسهرها ولوعةٍ في هواكِ أضمرها
وحرقةٍ والدموعُ تُطفئها ثم يعود الجوى فيُسعِرها
يا علوَّ علِّ الزمانَ يُعقبنا أيام وصلٍ نظلُّ نشكرها

وكان السنوات الطويلة التي مضت بين حبه لها في شبابه ومدبحه للمعتر
وهو في نحو الخمسين من عمره لم تطفىء لوعته وحرقته ، فقد ظلت نار شوقه وحبه

(٣) الديوان ٢/ ١٠٧٤ .

(١) الديوان ٣/ ١٩٤٥ .

(٢) عرمرم : كثيف .

لها مشتعلة بين جوانحه ، وظل يصدر عنها في قطع مفردة وفي مقدمات مدائح
من مثل قوا^(١) :

وخلافُ الجميل قولك للذَّا كر عهدَ الأحبابِ صَبْرًا جميلاً
لا تَلْمُهْ على مواصلةِ الدَّمِ معِ فلومُ لَوْمِ الخليلِ الخليلاً
عل ماءِ الدموعِ يُخمدُ ناراً من جَوَى الحبِّ أو بيلُ غليلاً

وكانت لدى البحترى قدرة بارعة في وصف مظاهر العمران ، بما أتيح له من
دقة في التصوير والتعبير ، ولم يكده يترك قصراً بناه المتوكل دون أن يصفه موجزاً أو
مسهباً ، وبالمثل وصف ما بناه الخلفاء بعده من قصور . ومرّ بنا وصفه الرائع
لإيوان كسرى ، ومن القصور التي أجاد في وصفها قصر الكامل الذي بناه المعتز وفيه
يقول^(٢) :

ذُعِرَ الحَمَامُ وقد ترنَّم فوقه من منظرِ خَطِرِ المزلَّةِ هائل^(٣)
رُفِعَتْ لمنخَرِقِ الرِّيحِ سموكُه وزهتْ عجائبُ حسنه المتخايل^(٤)
وكأنَّ حِيْطَانَ الزَّجاجِ بجوِّه لُجَجٌ يَمُجِّنُ على جُنُوبِ سواحلِ
لبستُ من الذهبِ الصَّقِيلِ سُقُوفُه نوراً يضيء على الظلامِ الحافل^(٥)

وقد مضى يصف رخامه وخطوطه المتقابلة وما امتد أمامه من بستان أنيق وما يجري
فيه من مياه دجلة المفضضة ومن نسيم الصبّا الحاني . وكان القدماء يعجبون أشد
الإعجاب بوصفه لبركة أقامها المتوكل بأحد قصوره فكانت فتنة للناظرين ، وفيها
يقول البحترى^(٦) :

يا مَنْ رَأَى البِرْكََةَ الحَسَناءَ رُوِّيتُها والآنساتِ إذا لاحَتْ مغانيها^(٧)
تنصبُّ فيها وفود الماءِ معجلاً كالخيلِ خارجةً من جَبَلِ مُجْرِيها

(٥) الحافل : الكثير .

(٦) الديوان ٤ / ٢٤١٦ .

(٧) الآنسات هنا جوارى المتوكل وكانت

منازلن تحف بالبركة .

(١) الديوان ٣ / ١٧٦٧

(٢) الديوان ٣ / ١٦٤٨ .

(٣) المزلّة : المزلق .

(٤) منخرق الرياح : مهجها . سموكه : أعاليه .

كأنما الفضة البيضاء سائلةً من السبائك تجرى في مجاريها
فرونق الشمس أحياناً يضحكها وريق الغيث أحياناً يباكيها
إذا النجوم تراءت في جوانبها ليلاً حسبت سماء ركبت فيها

ويتحدث عن السمك المحصور في البركة والصحن الممتد في أسفلها والبهو الممتد في أعاليها وتمثال الدئفسين الذي كان مقاماً عليها ، والبساتين والرياض التي تحف بها والأزهار التي تشبه ريش الطواويس في تلاوينها العجيبة . ولعل في كل ما قدمنا ما يصور شاعرية البحري الرائعة وكيف أنه استطاع أن يتلانى بملكاته الخصبية المتصور في ثقافته الحديثة ، فإذا هو يملك من أدوات التعبير ما يستحيل به شعره إلى أنغام وألحان خالصة .

٣

ابن الرومي

هو علي^(١) بن العباس بن جريج ، ويبدو أن أول من أسلم من آباءه أبوه القريب العباس ، وقد نشأ على الولاء لعبد الله بن عيسى بن جعفر بن المنصور العباسي . وكان يوناني الأصل كما يشهد بذلك اسم جده ، ونراه في شعره ينسب نفسه إلى اليونان مراراً وقد يسميهم الروم أحياناً من مثل قوله :

ونحن بنو اليونان قوم لنا حجي
ومجد وعيدان صلاب المعاجم

شعره) للمقاد وحصاد المشيم للمازق، ومن حديث الشعر والنثر لطف حسين ، والفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٢٠٠ . واختيارات كامل كيلاني من ديوانه الضخم وقد نشرها باسم ديوان ابن الرومي ولا يزال الديوان مخلوطاً لم ينشر . وانظر اختيارات روفون جيست منه مع دراسة عن حياة ابن الرومي وشعره ترجمة حسين نصار .

(١) انظر ترجمته وأشعاره في مروج الذهب ١٨٢/٤ ، ١٩٤ ، وتاريخ بغداد ٢٣/١٢ والموشح للمرزباني ص ٣٥٧ ، وابن خلكان والنجوم الزاهرة ٩٦/٣ وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ١٨٨/٢ ، ومرآة الجنان لليافعي ١٩٨/٢ وابن داود في كتابه الزهرة وديوان المعاني للمسكري في مواضع متفرقة (انظر الفهرس) وابن الرومي (حياته من

وقوله في مواليه العباسيين :

مولاهمُ وَعَدِيُّ نِعْمَتَهُمُ وَالرُّومُ - حِينَ تَنْصُنِي - أَصْلِي

ولم تكن أمه رومية ، بل كانت فارسية ، وعلى نحو افتخاره بأصوله من الروم يفتخر بأصوله وختولته من الفرس ، حتى لينسب نفسه إلى ملوكهم الساسانيين ، وهي نسبة لم يكن عليها حجاب ، فكان كثير من الشعراء ذوي الأصول الفارسية يدعونها ، ومن فخره بنسبه العريق - في رأيه - من قبيل أبيه وأمّه قوله :

كَيْفَ أُغْضِي عَلَى الدِّنْيَةِ وَالْفُرِّ سُسُ خُتُولِي وَالرُّومُ هُمُ أَعْمَامِي
وقد وُلد لأبويه ببغداد سنة ٢٢١ للهجرة نِضْوًا ضَيْثِيًا نَحِيلًا دَمِيمَ الْوَجْهِ
تَمْتَحِمُهُ الْعَيُونُ ، وَظَلَّ طَوَالَ حَيَاتِهِ يَسْتَعْمِي عَلَى نَفْسِهِ دَقَّةَ جَسْمِهِ وَضَالَاتِهِ وَقَبِيحَهُ ،
وَلَهُ فِي ذَلِكَ أَشْعَارٌ كَثِيرَةٌ يَصْرَحُ فِيهَا بِدِمَامَتِهِ وَمَا انْضَمَّ إِلَى ذَلِكَ مِنْ صَلْعِهِ الَّذِي
كَانَ يَأْخُذُ مَعْظَمَ رَأْسِهِ حَتَّى اضْطُرَّ أَلَا يَخْلَعُ الْعِمَامَةَ أَبَدًا ، وَهُوَ مَقْطُوعَةٌ يَصُورُ
فِيهَا صَلْعُهُ وَقَبِيحُ وَجْهِهِ ، وَنَرَاهُ يَخْتَمِهَا بِقَوْلِهِ (١) :

شَغِفْتُ بِالخُرْدِ الْحَسَانَ وَمَا يَصْلِحُ وَجْهِي إِلَّا الَّذِي وَرَعِ
كَيْ يَعْبُدَ اللَّهَ فِي الْفَلَاةِ وَلَا يَشْهَدُ فِيهَا مَسَاجِدَ الْجَمْعِ

ويبدو أن أباه كان على شيء من اليسار ، وحقاً توفي في مطالع حياته ، ولكن يظهر أنه ترك للأسرة ما يتيح لها على الأقل كفاف العيش . وكان له ابن آخر يسمى محمداً عمل في الدواوين الحكومية ، كما كانت له فتاة ماتت قبل أمها ، وابن الرومي في نحو الخمسين من عمره . على كل حال مكّن يسار هذه الأسرة لابن الرومي أن يتجه إلى التعلم فالتحق ببعض الكتاتيب ، وكانت تعنى بتحفيظ القرآن الكريم وتلقين الناشئة النحو وبعض الأشعار والخطب وشيئاً من الحساب ، فالتهم ذلك كله الصبي ، ثم مضى يختلف إلى حلقات العلماء في المساجد تارة يستمع إلى محمد بن حبيب الراوية المعروف أو إلى زميله ثعلب ، وأخرى يستمع إلى بعض المحدّثين أو بعض الفقهاء أو بعض رواة التاريخ والأخبار . وكانت دار الحكمة التي عني

(١) الديوان (مختارات الكيلاني) ص ١ .

بها الرشيد والمؤمن مدَّ يده وعينه ، وكانت تكتظ بكتب الفلسفة وعلوم الأوائل فانقض عليها انقضاءً يقرأ ويستوعب ويستسيغ ويتمثل تمثلاً نادراً^(١) . وتكثر في أشعاره الإشارة إلى حكماء اليونان الأقدمين ، كما تكثر أسماء الكواكب والنجوم . ومما لا ريب فيه أنه كان — كما مر بنا في غير هذا الموضوع — يعتقد الاعتزال . ويذكر معاصروه أنه كان ضيق الصدر سريع التغير والانقلاب ، وسرى أثر ذلك في أشعاره إذ كثيراً ما كان يضيّق ببعض ممدوحيه فينقلب هاجئاً لهم ، ويذكر معاصروه أيضاً أن من كان يلقاه يراه كالمتموجسّ المدعور ، وكأنما كان في أعصابه شيء من الاختلال ، ولعل ذلك هو الذي أعدّه لأن يصبح أكبر شاعر متطير في عصره . وكان إذا رجع في كثرة تطيرته احتج بقوله إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب الفأل ويكره الطيرة ، أفتراه كان يتفاعل بالشيء ولا يتطير من ضده ، ويقول إن علياً لم يكن يغزو غزاةً والقمر في برج العقرب ، وكان يزعم أن الطيرة موجودة في الطباع قائمة فيها^(٢) . ويقصُّ معاصروه عن طيرته أخباراً كثيرة ، من ذلك أنه أغلق باب داره ثلاثة أيام لما تصادف من أنه كان يصير إلى الباب والمفتاح معه فيضع عينه على ثقب في خشب الباب فيرى جارا له أحذب كان نازلاً بإزائه يقعد على الباب . فإذا نظر إليه رجع عن عزمه على الخروج وخلع ثيابه وقال لا يفتح أحد الباب^(٣) . وافتقده في مجلسه بعض الأمراء ، وكان يعلم حاله من الطيرة ، فأرسل له غلاماً يسمى إقبالا ليتفاعل به عند سماع اسمه ، غير أنه لم يكده يعزم على المضي معه حتى بدا له اسمه معكوساً هكذا : لا بقاء ، فقال له امض إلى سيدك وأنبأه بما في نفسه ! . وأرسل له بعض الأصدقاء غلاماً له يسمى حسناً ، وكان حسن الوجه ، طالبتاً إليه أن يزوره ، فخرج معه ، وإذا أمام داره دكان خياط درفتاه على هيئة اللام ألف ، هكذا : لا ، وحانت منه التفاتة فرأى تحت الدرعتين نوى تسمّر ، فتطير ، وقال إن هذا يشير إلى :

(٢) زهر الآداب للحصري ١٧٢/٢ .

(٣) زهر الآداب ١٧٧/٢ .

(١) أشار أبو العلاء في رسالة الغفران

إلى تفلسف ابن الرومي قائلاً إنه كان يتعاطى

الفلسفة . انظر طبعة كيلاني ٧٤/٢ .

أن « لا تمر » ورجع إلى داره ولم يذهب مع الغلام^(١). ومن المؤكد أن هذه الأخبار وما يماثلها دخلتها مبالغة كثيرة ، وقد يكون بعضها اختلق عليه اختلاقاً . ويتوقف القدماء عند قصيدة بائئة مدح بها أبا العباس بن ثوابه الكاتب ، وكان قد دعاه لزيارته في سامراء ، فتعلل على سبيل الفكاهة بتصوير مخاطر الرحلة إليها من بغداد براً وبحراً بمثل قوله^(٢) :

لقيتُ من البرِّ التباريحَ بعد ما لقيت من البحر أبيضاضَ الدوابِ
وقد مضى يصف دجلة وبلاء الركوب فيه متفكها ، فأدخلوا ذلك في باب طيرته ، ولا طيرة ولا ما يشبه الطيرة . وليس معنى ذلك أننا نريد أن ننفي تطيره ، إنما ننفي المبالغة فيه ، أما بعد ذلك فقد كان ابن الرومي يتطير حقاً ، واشتهر بذلك بين معاصريه ، حتى لزمى الأخفش على بن سليمان النحوي ، وكان قد هجاه ، يقتصّ لنفسه منه ، بأن يقرع عليه الباب في الصباح ، فإذا قال من القارح ؟ أجابه بمثل مُرّة بن حنظلة أو حرب بن مقاتل وغير ذلك من الأسماء التي تملؤه طيرة ، فيحبس نفسه في بيته ، ولا يخرج يومه أجمع^(٣) .

وقد فتحت موهبته الشعرية مبكرة ، وهو لا يزال حَدَثًا في الكتاب ، إذ تُروى له أبيات حينئذ في هجاء غلام عباسي يسمى جعفرأ كان زميلاً له ، وكان ذلك كان إرهافاً بأن الهجاء سيغلب عليه طوال حياته . وقد مضى يتخذ الشعر - كلداته - حرفة يتكسب بها ، فهو يعرضه على عليّية أهل بغداد ، وكان طبيعياً أن يعرضه على كبار الموظفين ورجال الدولة وفي مقدمتهم أبو العباس محمد بن طاهر حاكم بغداد منذ سنة ٢٣٧ ، وأسرة الطاهريين معروفة كان طاهر بن الحسين قائداً للمأمون وهو الذي قضى على ثورة الأمين ، وكان ابنه عبد الله بن طاهر أميراً لخراسان وخلقه عليها ابنه طاهر . وحاول ابن الرومي الزلفى إلى محمد بالمديح ، ويبدو أنه لم يكن يتسع في ثوابه ومكافأته ، وكان على علم بالشعر ، فأخذ ينقد بعض أشعار ابن الرومي ، وغاز الشاعر الشاب نقده . بل لقد أخذ يحرمه نواله ، مما جعل ابن

(١) انظر في هذه الأخبار زهر الآداب

وذيله ص ٢٤٢ والعمدة لابن رشيقي ٤٠/١

ومعاهد التنصيص ١٤٣/١ .

(٢) انظر القصيدة في الديوان ص ٢ .

(٣) ذيل زهر الآداب ص ٢٤٣ ومعاهد

التنصيص ٤٣/١ .

الروى يوجه إليه مثل قوله (١):

مدحت أبا العباس أطلب رفده فخيبي من رفده وهجاً شعري

ويبدو أنه كان بخيلاً ، وأن بخله كان السبب الحقيقي في انصرافه عن الشاعر ، متعللاً بأنه لا يعجب بشعره ، مما جعل ابن الروى يصبّ عليه سيلاً حامية من الهجاء ، وهو يعمم فلا يقف بهجائه له عنده وحده ، بل يعمّ به أسرة الطاهريين جميعاً من مثل قوله (٢):

إذا حسنت أخلاق قوم فبئسما خلفتم به أسلافكم آل طاهري
جنوا لكم أن تمدحوا وجنيتم لموتاكم أن يشتموا في المقابر

وترنو عينه إلى سامراء حاضرة الخلافة ومجمع كبراء رجال الدولة ووزرائها وموظفيها العظام ، ويقدم عليها لعهد المنتصر سنة ٢٤٨ ، ويمدح أحمد بن الحبيب وزيره ، ويعود سريعاً إلى بغداد ويظهر أنه وجد الأبواب مغلقة أمامه . وقد يكون السبب الحقيقي في ذلك أنه عزف عن سامراء لتشييع فيه كان يضمه في نفسه ، فتركها وعاد إلى مسقط رأسه . ولا يلبث يحيى بن عمر العلوي أن ينهض بثورة عارمة في الكوفة ضد الدولة ، ويجند جيشاً كثيفاً لحرب العباسيين ، ويلتقي به محمد بن عبد الله بن طاهر لسنة ٢٥٠ ، وتدور عليه الدوائر ، ويقتل في ساحة المعركة ويفضّب له ابن الروى غضباً شديداً ، ويرثيه بجيمية (٣) طويلة ، يندبه فيها نديباً حاراً ، مصوراً حرقة حزنه عليه بمثل قوله :

سلامٌ وريحانٌ وروحٌ ورحمةٌ عليك وممدودٌ من الظل سَجَسَجُ
ويا أسفى أن لا يردّ تحيةً سوى أراجٍ من طيب نَشْرِكُ يَأْرَجُ
ألا إنما ناح الحمائم بعد ما ثويتَ وكانت قبل ذلك تهزج

ولا يبكيه وحده ، بل يبكي العلويين جميعاً منذ شهيدهم الحسين المقتول في كربلاء ، ويتفجع على قتله مصوراً جزاءه في عليين ، ويأسى أن يكون للعلويين

(٣) الديوان ص ٢٢٤ .

(١) الديوان ص ٤٣٨ .

(٢) الديوان ص ٣٩٦ .

دائمًا قتيلاً مضرج بالدماء دون خوف من الله وانتقامه ودون أى رعاية للرسول عليه السلام وآل بيته ، ويتناول العباسيين فى جرأة ، ويتوعدهم أن يُردّ الأمر إلى نصابه وأن يرجع الحق إلى أهله ، على يد علوى نائر ، يحطم العباسيين بحيشه الكثيف حطماً . ويتوجه إلى محمد بن عبد الله بن طاهر بالخطاب متمنياً أن تزول دولته ودولة آلّه فى خراسان ، ويعلن أنهم أعداء الرسول والإسلام جميعاً ، وأن دولتهم لا بد أن تدول وتُسْحَق محققاً فينطقى غليل الصدور وتبرأ القلوب الكليمة .

وعلى هذا النحو أصبح ابن الروى يجاهر بتشييعه ، وأهل هذا الجانب فيه هو السبب الحقيقى فى أنه لم يحاول المثل بين يدى الخلفاء مادحاً ، وبالتالى لم يظهر فى مجالسهم بسامراء ، ومع ذلك كان كثير التردد عليها ، ولكنه لم يكن يتجاوز عتبة الوزراء ، ويلاحظ أنه لم يحاول أن يمدح قواد الترك ، وكأنهم كانوا أبعد من أن يفهموا الشعر أو يثيبوا عليه ، ويشير الطبرى إلى ذلك بقوله : إنهم لم يكونوا يعرفون حدود الكلام^(١) . ونمضى مع ابن الروى بعد مريثته الشيعة الآتفة الذكر ، فنجلده يقف مع عامة بغداد لسنة ٢٥١ حين لجأ إليها الخليفة المستعين ، ووقعت الحرب بينه - ومعه أهل بغداد - وبين المعتز الذى بايعه الترك والهند فى سامراء وينضم محمد بن عبد الله بن طاهر إلى عامة بغداد ، ويحارب معهم جند المعتز ، وتصفو العلاقة حينئذ بين ابن الروى وابن طاهر ، وبدا فى نهاية الأمر رجحان كفة جند المعتز ، فجنح ابن طاهر إلى الصلح وخلع المستعين ، وانتهت الأمور بعزله ثم قتله فى سنة ٢٥٢ . ويغضب ابن الروى ولكن كأنما ذلك كان سحابة عارضة ، فتظل صلته بابن طاهر وثيقة ، على نحو ما يتضح من دالية له يرثيه بها حين توفى سنة ٢٥٣ افتتحها بقوله^(٢) :

إن المنية لا تبق على أحدٍ ولا تهاب أخا عزٍ ولا حشدٍ

وفىها يُشيد بكرمه وعداه فى الرعية واصفاً حزنها لفقده وألمها لموته وما سكبت عليه من عبرات . ويتولى مكانه حكم بغداد أخوه عميد الله بن عبد الله بن طاهر ،

(١) الطبرى ٩/ ٢٨٤ .

(٢) الديوان ص ٥٠ .

وهو أكثر الطاهريين معرفة وأدباً ، وله كتب مصنفة مختلفة وأغان مدوّنة . وهو أقرب ممدوحى ابن الرومى إلى نفسه ، فقد أغدق عليه جوائز وأمواً كثيرة ، وكان شاعراً ، يحسن فهم الشعر وتذوقه ، كما كان يحسن الفلسفة وفروعها المختلفة ، ومرّ بنا تعرضه للبحترى ووقوفه ضده مع ابن الرومى ممثلاً للذوق الحديدى فى الشعر لعصره . ووجد فيه ابن الرومى راعيه الحقيقى ، راعيه المادى الذى يجزل له فى العطاء وراعيه المعنوى الذى ينوّه بأشعاره ويصفق لطرائفه استحساناً ، وراعيه ضد خصومه أصحاب الذوق الأدبى المحافظ من أمثال البحترى . وهكذا وجد عنده كل ما كان يبتغيه لنفسه ، وكان عبيد الله يذهب إلى سامراء كثيراً للقاء الخليفة ، فكان يصحب معه ابن الرومى . وزراه يمدح أحمد بن إسرائيل وزير المعتز لسنة ٢٥٣ ويتعرّف فى هذه الأثناء بأبى العباس أحمد بن ثوبان كاتب القائد التركى بايكباك لعهد المعتز والمهتدى ، وأصبح فيما بعد رئيس ديوان الرسائل ، وهو كاتب نابه ، ومرّت بنا إشارة إلى ملحة له نظمها حين دعاه لزيارته فى سامراء معتذراً بمخاطر الرحلة براً وبحراً ، آملاً أن تصله مكافأته فى بغداد ، ولا تمضى صلته بابن ثوبان إلى نهاية الطريق ^(١) . وهكذا هو دائماً سرعان ما يتغير على ممدوحيه ، إما لقلّة الجائزة وإما لمنعها منه وحرمانه ، وإما لأنه تخيّل أى شىء عارض جعله يظن بصديق الأمس الظنون . ويتعرف عنده على أبى الحسن بن على الباقر بن كاتبه وزراه يعاتبه لتقديمه البحترى عليه ^(٢) . وأهم من ابن ثوبان وكاتبه أنه تعرف منذ سنة ٢٥٥ على أبى الصقر إسماعيل بن بلبل رئيس ديوان الضياع ، إذ نراه يهنته برياسته لهذا الديوان ، وسراه فيما بعد يكثر من مديحه حين أصبح وزيراً للمعتمد . ويتردد على واسط ليمدح آل أبى شيخ .

ويُعزّل عبيد الله بن عبد الله بن طاهر عن حكم بغداد سنة ٢٥٥ ويولّى مكانه أخوه سليمان ، وكان أميراً لطرستان فأخرجه منها الحسن بن زيد العلوى بعد حروب ومعارك طاحنة ، وكأنما أعطى بغداد مكافأة له على هزيمته ! . ويقف ابن الرومى فى صف عبيد الله ، ويعجب كيف يُعزّل ويولّى مكانه هارب ، وكأنما يُجزى بذلك خير الجزاء ، أو قل كأنما هى غنيمة نالها بئأسه وشجاعته ، وإنه

(٢) الديوان ص ٢١٧ .

(١) انظر مدحته له فى الديوان ص ٦١ .

لخذلان من شأنه أن يصرف الناس عن الإقدام في الحروب ، ويسخر منه في مقطوعات مختلفة من مثل قوله (١) :

هو الأسدُ الورْدُ في قَصْرِهِ ولكنهُ تُعَلَبُ المعركة

ويحدث أن يُجتمِع الأتراك أمرهم ويصمموا على خلع المعتز ، لإقدامه على قتل بعض رؤسائهم ، ويرسلوا إلى سليمان بن عبيد الله بن طاهر حاكم بغداد أن يبعث إليهم بمحمد بن الواثق ليبياعوه بالخلافة ، ويبعث به ، وكأنما يجد ابن الرومي في ذلك نكثاً من سليمان لبيعته للمعتز ، فيُصليه بقطعة من هجائه قائلاً (٢) :

جاءَ سليمانُ بنى طاهرٍ فاجتاحَ معتزاً بنى المعتصمِ
كأنَّ بغدادَ لَدُنْ أبصرتُ طلعتَه نائحةٌ تلتدمُ
مستقبلُ منه ومستدبرُ وجهٍ بخيلٍ وقفنا منهزمِ

وتتطور الظروف ، ويحجب المعتز قواد الأتراك إلى الخلع ، ويُحبَس ويُقتل في محبسه بعد خلعه بستة أيام ، وحينئذ نرى ابن الرومي يغيّر موقفه من المعتز فيحذّره حين حبس من أن يعاوده التفكير في الخلافة ، وينظم في ذلك قصيدة بائنة يقول فيها (٣) :

دَعِ الخِلافةَ يا معتزُ من كَتَبِ فليس يكسوك منها اللهُ ما سَلَبَا

ويتغيّر تبعاً لذلك موقف ابن الرومي من سليمان بن عبد الله بن طاهر ، ويهديه بعض مدائحه ، ويمنحه سليمان بعض الجوائز ، ثم يحدث أن جاراً ، ماكرأ له من تجار بغداد كان يعرف باسم ابن أبي كامل تطمح نفسه إلى شراء داره ، ويحاول أن يجبره على بيعها باغتصابه لبعض جدرانها وإفساد بعض جوانبها ، ويستعدي عليه سليمان (٤) بن عبد الله بكافية طريفة سبق أن أنشدنا منها في الفصل الماضي تعليقه المشهور فيها لمحبة الأوطان ، وهو يدور على كل لسان ، وفيها يقول مصرّاً على أنه لن يبيع داره :

ولى وطنُ آليتُ أن لا أبيعَهُ وأن لا يُرى غيرى له الدهرَ مالكا

(٣) الديوان ص ٤٥١ .
(٤) انظر زهر الآداب ٩٩/٣ .

(١) الديوان ص ٣٤١ .
(٢) الديوان ص ٢٨ .

ولوَّح لسليمان بأنه يريد منه عوناً مالياً يصلح به داره ، ولكن سليمان لم يبادر إلى عونه ، فسخط عليه سخطاً شديداً وعاد إلى هجائه بالجن والبخل ، وكان جده طاهر يلقب بندى اليمينين ، فقال فيما قال من هجائه :

له شِمالان حاز إرثهما عن ذى اليمينين شدَّ ما اختلفا
ويدخل عصر المعتمد وأخيه الموفق الذى كان يُعَدُّ الحاكم الحقيقى حينئذ ،
إذ قلَّم أظفار الجند الأتراك وقضى على ثورة الزنج قضاء مبرماً وهزم يعقوب الصفار
هزيمة نكراء ، ودان له الولاة : الطولونيون وغيرهم مدعين خاضعين ، وكان يتخذ
صاعد بن مخلد كاتباً له ، ورفعاه إلى مرتبة الوزارة سنة ٢٦٥ وامتدَّ يُمْنُه حينذاك
إلى ابنه العلاء فأصبحت بغداد واليهما تابعين له ، وكان عبيد الله قد عاد إلى حكم
بغداد سنة ٢٥٩ وظلَّ يحكمها ثلاث سنوات ، ثم وليها محمد بن طاهر بن عبد الله
ابن طاهر ثم عاد إليها عبيد الله تابعاً للعلاء بن صاعد سنة ٢٦٦ حتى سنة ٢٧١ .
وأقبلت الدنيا على ابن الرومى مع إقبالها على صديقه عبيد الله . فكانت تلك السنوات
أهنأ أيامه ، وأكثر فيها من مديح عبيد الله مع كل مناسبة : مع أعياد النيروز
والمهرجان ومع عيدى الفطر والأضحى . وفي ديوانه مدائح مختلفة لصاعد وابنه
العلاء ، ويغلب أن يكون اتصل بهما مبكراً ، حتى إذا أصبحت بغداد وعبيد الله
ابن عبد الله بن طاهر تابعين للعلاء أكثر من الصلة بهما ومن مديحهما ، وله فيهما
دالية^(١) طويلة . وفيهما يقول :

وكل مديحٍ لم يكن في ابن صاعدٍ ولا في أبيه صاعدٍ فهو حابطٌ
وكانت قد أخذت المنافسة بينه وبين البحرى تمتدَّ ، وانقسم الأدباء قسمين :
قسماً هو الأكثر لما كان يؤازره من اللغويين ، وهم أنصار البحرى ، وقسماً مقابلاً
هو أنصار ابن الرومى وفي مقدمتهم عبيد الله بن عبد الله بن طاهر كما أسلفنا ، ونرى
ابن الرومى يهجو خصمه بباية طويلة^(٢) يقول فيها إن الحظ أعمى ولولا ذلك ما نال
البحرى ما نال من الشهرة بشعره الغث فى رأيه ، ويزعم أنه ليس له فيه شيء فكله
إغارات وسرقات ونهب من دواوين أسلافه ، ويستعدى عليه — كما مرَّ بنا فى غير
هذا الموضوع — العلاء بن صاعد الذى أمَّن الطرق من اللصوص قاتلاً :

(٢) الديوان ص ٢٤ .

(١) الديوان ص ٣٩٠ .

أيسرُقُ البحترىُّ الناسَ شعرهمُ جهراً وأنت نكال اللصِّ ذى الرِّيبِ
يعيبُ شعري وما زالت بصيرتهُ عمياءَ عن كل نور ساطع اللهبِ

وفى البيت الثانى ما يدل على أن البحترى كان بدوره يبادله نقداً لشعره ، وغضب له عبيد الله بن عبد الله بن طاهر كما مرَّ بنا ، وأصلى البحترى أشعاراً حامية ، نعى فيها عليه أنه غير مثقف بالثقافة الفلسفية الحديثة مثل ابن الرومى الذى لا يُلحَقُ شأوه ، والذى تعمق الفلسفة والمنطق . وردَّ عليه البحترى كما أسلفنا فى حديثنا عنه . وما زالت المنافسة مشتدة بين الشاعرين حتى جمع بينهما بعض الأدباء مثل سليمان بن الحسن بن مخلد وعبد الله بن الحسين القطربلى ، فتصافيا وتوادَّا واعترف كل منهما بفضل صاحبه .

ومن الغريب أن ابن الرومى لم يكن يستطيع أن يُبقي على علاقة حسنة بوزير أو بابن وزير ، فقد كان يكتفى كل منهما ألا يُنفذ إليه الجائزة أو يقلل منها ، فإذا هو خصم لِدُودٌ ، وإذا هو يسئلُ لسانه ويَبْرِى شعره سهاماً مُدْمِية . وهو ما حدث بينه وبين صاعد وابنه العلاء ، فقد أخذوا يهملان نواله على مدائحهما بعض الإهمال واستشاط غضباً ، وأخذ ينزل عليهما شواظ هجائه من مثل قوله (١) :

لِيَهْنِكُمْ أَنْ لَيْسَ يَوْجِدُ مِنْكُمْ لِبُوسِ ثِيَابِ الْمَجْدِ لَكِنْ خَلَّوَعَهَا

وظل يتشغى حتى بعد سقوطهما والإلقاء بهما فى غياهب السجون سنة ٢٧٢ . وكان يتصل ببعض كبار موظفى الدولة ، وكان منهم من يتعصب للبحترى فكانوا يردُّونه ردّاً قبيحاً ، وقد يهملونه ولا ينيلونه أى عطاء على ما يقدم إليهم من المدائح ومن خير الأمثلة على ذلك إبراهيم بن المدبر ممدوح البحترى وصديقه الذى ولى ديوان الرسائل حيناً وتولى ولايات مختلفة . وكان قد اشترك — كما مر بنا فى الحديث عن البحترى — فى حرب الزنج ، ومدحه ابن الرومى فلم يلتفت إليه ، وتصادف أن كان يلى خراج الأهواز سنة ٢٥٧ ودخلها بعض جنود صاحب الزنج فثبت لهم فيمن ثبتوا ، وأصابته شجّة فى وجهه ، وأسر ، واستطاع التخلص من أسره ، ونرى ابن الرومى يشتم به ، ويسجل عليه جنبه وبخله فى قصائد ومقطوعات مختلفة ، وله يقول (٢) :

قل لي بآية حيلة أعملتها هتفوا بأنك - لا حفظت - جواد
لقد استفاض لك الثناء بحيلة صعب الأمور بمثلها ينقاد

ومرَّ بنا أنه تعرف على أبي الصقر إسماعيل بن بلبل منذ عصر المعتز حين أصبح
رئيس ديوان الضياع في سامراء ، وظل منذ هذا الحين موصولاً به ، وكان الموفق
قربه منه واتخذته كاتباً له ، فكان يغدو عليه ويروح سواء حين يكون في سامراء ،
أو مع الموفق في واسط في أثناء معاركه مع الزنج . ورفع الموفق إلى مرتبة الوزارة
فترة لسنة ٢٦٥ حتى إذا نكَل بصاعد سنة ٢٧٢ استوزره من بعده له ولأخيه
المعتمد ، وفرح ابن الرومي بما ناله ، فدبَّح فيه قصيدة طويلة^(١) ، استهلها بالغزل
نافذاً إلى طريقة جديدة ، إذ عرض من خلال وصفه لصاحبته ما في الحدائق من
فواكه شهية ، حتى سماها عبيد الله بن عبد الله بن طاهر دار البطيخ أي حانوت
الفواكه ، ومضى بعد ذلك في مديح أبي الصقر مدحا رائعاً ، غير أنه لما استمع
إلى قوله :

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم كلا لعمرى ولكن منه شيبان
ظن أنه يعرِّض به ، لأنه كان يدعى نسبه من شيبان ولم يكن شيبانياً حقيقة
فقال : هجاني ، وراجع به بعض الحاضرين قائلاً له : إن هذا من أحسن المدح ،
ألا تسمع ما بعده :

وكم أب قد علا بابن ذرى شرفٍ كما علت برسول الله عدنانُ
فقال : أنا بشيبان ، وليست شيبان بي ، وملاه الغيظ والغضب على ابن الرومي ،
فقبل له : ألم تسمعه يقول :

ولم أقصر بشيبان التي بلغت بها المبالغ أعراق وأغصان
لله شيبان قوم لا يشوبهم روع إذا الرُّوع شابت منه ولدان
فاستمر في غيِّه وسوء فهمه ، وقال : والله لا أثيبه على هذا الشعر^(٢) . وواضح
أن أبا الصقر لم يفهم معاني القصيدة ولا مراد ابن الرومي في البيت الأول وغيره من

(٢) زهر الآداب / ١ / ٢٤٤ وما بعدها .

(١) الديوان ص ٢٠ .

الآيات ، فكان طبيعياً أن يجرمه الجائزة ، وكأنه أيضاً لم يفهم قوله في القصيدة مادحاً له :

فَرُدُّ جَمِيعُ يَراهِ كَلُّ ذِي بَصَرٍ كَأَنَّهُ النَّاسُ طُرّاً وَهُوَ إِنْسَانٌ

ولم يكن هذا وبالا على ابن الرومي بقدر ما كان حرباً على ابن بلبل فقد أخذ يهجو ابن الرومي هجاء مرّاً ساخرّاً من ادعائه أنه شيباني حقيقة ، مثبتاً عليه أنه دعى في شيبان لصيقٌ بها ، يقول ساخرّاً هازئاً به (١) :

تَشَيَّبَنَ حِينَ هَمَّ بِأَنَّ يَشِيْبَا لَقَدْ غَلَطَ الْفَتَى غَلْطاً عَجِيباً ؟

وقد مضى يذكر أن شيبان ستشيب من هذا الخطب الجسيم ، إذ يدعى النسب فيها أعجمي نبطي ، ويعنى كيمياء الحظوظ التي أتاحت له مجد الوزارة . ويظل يهجو حتى يزوج به المعتضد في السجن لعام ٢٧٩ وما يلبث أن يموت في سجنه ، وابن الرومي في أثناء هذه النكبة التي حلّت به يهجو أهاجي كثيرة من مثل قوله (٢) :

فَلئن نُكَبِتَ لَطالما نُكَبِتَ بك همةٌ لَجأتُ إلى سَنَدِكَ
يا نعمةٌ ولَّتْ غَضارُتُها ما كان أَقْبَحَ حُسْنِها بِيَدِكَ

وكان عبيد الله بن عبد الله بن طاهر قد عُزل عن حكمه لبغداد سنة ٢٦٢ ثم عاد إلى حكمها — كما مرّ بنا — في سنة ٢٦٦ فكان يكتبني بالمعيشة في ظلاله . وكانت العلاقة بينهما — كما أسلفنا مراراً — وثيقة ، ووظّف له أخوه محمد في بعض فترات حكمه لبغداد ، ومات وهو في خدمته ومات قبله بمدة أمه ، وله فيهما مرثيتان .

وكان طبيعياً أن يكثر مديحه لبعض ذوى البيوتات في بغداد وفيما حولها من المدن والضواحي ، ومن نراهم مائلين في ديوانه بنو فياض وهم يرجعون إلى أصول فارسية ، وكانت لهم إقطاعات وضياع واسعة في دير العاقول بالقرب من بغداد ، وتسمّشُ في ديوانه أسرة بني نوبخت الفارسية الأصل ، وهي تشتهر من قديم بثقافة

(٢) زهر الآداب ٢٤٤/١ وما بعدها .

(١) الديوان ص ٤٨ .

أبنائها وكثرة ما ترجموا من الفارسية إلى العربية ، وأهم شخص يُكثّر من ملحه بينهم أبو سهل إسماعيل بن علي ، وكان من رعوس الشيعة ، ويقال إنه مؤسس الفرقة الإثنى عشرية ، وفي صلته به ما يؤكد تشيعه وأن من الممكن أن يكون علي مثاله إمامياً يعتقد مذهب الاثنى عشرية . ومن الأسر التي أكثر من ملحها أسرة بني حماد قضاة بغداد ، خاصة منهم القاضي إسماعيل بن حماد المتوفى سنة ٢٨٢ ونراه يمدحه في قصيدة بائنة محاولاً أن يبرئ نفسه من تهمة بالزندقة التي نُقلت إليه ، ويستشهد على صحة براءته بابنين عدلين للقاضي يعرفان حقيقة أمره ، ويستحثه على التنكيل بوشاة السوء الذين دبّروا اتهامه بهذه التهمة النكراء ، ويقول إنهم هم الذين دبّروا الثورة عليك وجعلوا العامة ترى دارك بالحصى والحجارة ، يقول (١) :

حملوا حملةً على الدين تحكى حملة الروم رافعين الصليبا
وأرادوا بك العظيمة لكن أوسع الله سعيهم تخيبا
وكان الغوغاء لما تغاوا فرموا داركم قضا تحصيا (٢)
زعموا أن ذاك غزوٌ وحج تبب الله أمرهم تتببياً

ولم ترو كتب التاريخ هذه الفتنة أو الثورة ضد القاضي ، ولعل في ذلك ما يدل على أن الشعر في هذا العصر يقدم إلى المؤرخين وثائق تاريخية قد لا يجدونها في كتب التاريخ المعروفة ، على نحو ما مرّ بنا عند البحثى وتسجيله لمعركة ابن دينار البحرية ضد الأسطول البيزنطي وحرقه ، فإن كتب التاريخ لم تشر إلى ذلك بحرف . وتتردد في الديوان أسماء أصدقاء كثيرين في مقدمتهم أبو عثمان الناجم راويته ، وقد حضر موته ، وابن المسيب الكاتب وأحمد بن عبيد الله وأحمد بن بشر المرثدي وكان كاتباً في ديوان الموفق وابن عمار (٣) ، وكان شاعراً ومن نقدة الشعر في عصره . وأكثر قصائده التي وجه بها إلى المرثدي يطلب إليه فيها بعض السمك ، ويقال إنه كان قد وعده أن يبعث إليه كل يوم بوظيفة منه لا يقطعها ، فبعث إليه يوم سبت

(١) الديوان ص ٣٠٩ .
(٢) التصويب هنا : روى الجمار بمى .
(٣) انظر توصيته لأبي سهل بن نوبخت به في الديوان ص ١٢٣ .

بهديّة منه ، ولم يرسل السبب التالى . فكتب إليه قصيدة يقول فيها (١) :

ما لحيثاننا جَفَتْنَا وَأَنْىَ أَخْلَفَ الزائرون منتظرهم
قد سَبَتْنَا وما أَتَتْنَا وكانوا يوم لا يسبتون لا تأتيهم

ومن الشخصيات التى ظل يمدحها طويلا على بن يحيى المنجم ، وهو من كبار المثقفين فى عصره ، وسبق أن تحدثنا عن مكتبته العظيمة ، وكان شاعراً ونديماً رفيعاً للخلفاء من المتوكل إلى المعتمد ، ولا يُعرف بالضبط بدء اتصال ابن الرومى به وله فيه قصائد ومقطوعات كثيرة ، وله يعاتبه (٢) :

لِتَهْنَأُ رجالٌ لا تزال تجودهم سحائبٌ من كلتا يديك مواطِرُ
عُنيت بهم حتى كأنك والدٌ لهم وهم - دوقى - بنوك الأصاغر

ومن تدور أَسْمَاؤُهُم فى ديوانه جَحَظَةٌ ، وكان شاعراً ويحسن الضرب على الطبل ، وكان ينادم المعتمد ، وهو نديم من نوع آخر غير نوع على بن يحيى المنجم ، نديم مضحك ، يتخذ للهزؤ به والفكاهة . وكان يصطدم بكثير من الشعراء فى عصره فيكويهم بأهاجيه ، وفى مقدمتهم مثقال وهو محمد بن يعقوب الواسطى ، وإبراهيم البيهقى شاعر عميد الله بن عبد الله بن طاهر ، وأبو حفص الوراق ، وابن أبى طاهر وابن الحجازة وخالد القحطبي ، فقد كان يُشَبِّهُ مع كل شاعر منهم معركة حامية الوطيس ، وكان دائماً هو المنتصر لخصب ملكاته وخياله . وتعرض بالهجاء للمبرد لأنه كان يقف فى صف البحرى ضده ، وتبعه تلميذه الأخفش فى هذا التعصب ولم يكتف بإعلان رأيه فى شعره ونقده فقد كان يأتيه من قبل تطيره كما أسلفنا ، ومن كان يعيب شعره نفظويه النحوى ، ولذلك لم يسلم من أهاجيه .

ويُظَلُّه عصر المعتضد منذ سنة ٢٧٩ ، وكانت قد عادت الخلافة إلى بغداد حاضرتها السابقة منذ سنة ٢٧٦ ، ويحس كأن الحياة أقبلت عليه وعلى مسقط رأسه كليهما . ويكثر من ذكر المعتضد فى قصائد ومقطوعات مختلفة ، ويبدو أنه لم ينشد أمامه واحدة منها ، فقد كان تشيعه لا يزال يبعده عن القصر ، وفى رأينا أنه

(٢) الديوان ص ٣٤٢ .

(١) ذيل زهر الآداب ص ٢٣٩ .

هو السبب الأهم في أن الوزراء كانوا يقبلون عليه ثم يزورون عنه اضطراراً لما ذاع من تشيعه. ونرى ابن الرومي يتعرض في أشعاره له لبسالته في حروب الزنج، ولتأخيره النيروز مفتتح الحجاج إلى الحادي عشر من حزيران وسماه النيروز المعتصدي قاصداً بذلك إلى الرفق بالرعية - كما مرّ بنا في غير هذا الموضع - وكان عملاً جليلاً. ويذكر بسالته في صيد الأسد، ويهنته بالأعياد وبزواجه من قَطْرَ الندى الأميرة المصرية بنت خمارويه لسنة ٢٨١ وله يقول في هذه المناسبة^(١):

يا سيد العُرب الذي زُفّت له باليُمن والبركات سيدة العجم
اسعدّها كسعودها بك إنها ظفرت بما فوق المطالب والههم
ظفرت بِمِلَّتِي ناظرها بهجةً وضميرها نبلا وكفيها كرم
شمس الضحى زُفّت إلى بدر الدجى فتكشفت بهما عن الدنيا الظلم

وكانت الوزارة قد تحولت منذ سنة ٢٧٨ إلى آل وهب، ويبدو أن صلة الشاعر بهم ترجع إلى أمد أبعد من ذلك، وبمجرد وصولهم إلى الوزارة نراه يقدم مدائح لعبيد الله بن سليمان بن وهب، وكان كاتباً مجيداً، ومدبراً لشؤون الدولة حصيفاً، وكان له أخ يسمى وهباً مدحه ابن الرومي في غير قصيدة كما مدح ابنه الحسن والقاسم، وهو يهمل طويلاً لحجى دولتهم، وتارة يمدحهم مجتمعين باسم آل وهب، وتارة يفرد لكل منهم القصائد الطويلة، ومن قوله في مديح عبيد الله^(٢):

إذا أبو قاسم جادت يدها لنا لم يُحمد الأجودان : البحر والمطر
وإن مضى رأيه أو حدّ عزمته تأخر الماضيان : السيف والقدر
وإن أضاءت لنا أضواء غُمرته تضاءل النيران : الشمس والقمر
ينال بالظن ما يعيى العيان به والشاهدان عليه : العين والأثر

وكان القاسم الابن الأصغر لعبيد الله إلا أنه كان مقدماً عنده لذكائه، ولذلك

(١) التجارية) ص ٢٦٥ .

(١) مروج الذهب للمسعودي ١٨٢/٤ .

(٢) ابن الرومي للعقاد (نشر المكتبة

أخذ يولييه بعض المناصب وهو صغير ، وكان إذا غاب أتابه عنه . وكان يعطف على ابن الرومي قبل تولي أبيه الوزارة ، ويقال إنه كان يجري عليه راتباً ، حتى إذا دانت الدنيا لأبيه أخذ يُجزل له في العطاء ، مما جعل ابن الرومي يُصنّفه مديحياً رائعاً . ولا نكاد نقبل على سنة ٢٨٢ حتى تُعاود ابن الرومي طبيعته ، وكأنما ضاق القاسم وأبوه بكثرة شكواه وإلحاحه المتكرر على العطاء ، ويبدو أن بعض الوشاة الحساد أخذوا يدسون عليه عندهما ، فحاولا إبعاده ، وشعسّر بضيق شديد فأخذ يعاتبهما ، وازداد الأمر - فيما يبدو - سوءاً إذ منعا عنه الجائزة أحياناً ، فأخذ يستعطفهما ، غير أنهما لم يصيخا له ، على الرغم من استصراخهما لبؤسه ، وعيشاً يناديهم ألا يضمنوا عليه بالقوت وأن يعرفوا له حق الأديب^(١) حينئذ يفرغ إلى قوسه القديم ، قوس الهجاء المرير ، ويريش لهما سهاماً مصمية من مثل قوله^(٢) :

تسميتم فينا ملوكاً وأنتم عبيدٌ لما تحوى بطونُ المزاودِ
لكم نعمةٌ أضحت بضيق صدوركم مبرأةً من كلِّ مُثنٍ وحمادِ
فإن هي زالت عنكم فزوالها يجددُ إنعاماً على كلِّ ماجدِ
ويفسد ما بينه وبين آل وهب فساداً لا يمكن رأيه .

وتردد في الديوان بأخرة من حياة ابن الرومي شخصيات من آل الفرات الذين سيسطع نجمهم في عهد المقتدر ، كما تردّد أسماء شخصيات كثيرة مثل أحمد بن محمد الطائي وإلى الكوفة لعهد المعتمد ، ويبدو أنه ظل متصلاً به حتى أواخر حياته . ويلقانا محمد بن داود بن الجراح الكاتب وأحمد بن محمد الواثق صاحب شرطة بغداد وعيسى بن موسى المتوكل الذي نعى عليه بخله بمقطوعات ساخرة ، وكاتب مسيحي للقاسم يسمى عمراً ، وله فيه أهاج تقطر سماً زعافاً ، وابن فراس وكان فيما يبدو لغويّاً .

ص ١٧٨ يدعى فيها أن آل وهب أحيوا دين الصليب وعنوا بتشيد الكنائس وهمد المساجد .

(١) الديوان ص ٢١٢ .

(٢) الديوان ص ٣٩٦-٣٩٧ وانظر مقطوعة في كتاب ابن الرومي لرونون جيست

ويغصّ الديوان بأسماء كثير من الجوارى القيان المطربات مثل بستان وجلنار
وبدعة وشاجي ودُريرة وغنّاء ووحيد ومظلومة وظلوم، وأكثرهن كن لوزراء أو لأمراء
مثل عبيد الله بن عبد الله بن طاهر والقاسم بن عبيد الله، وكان بجوارهن قينات
وجوار لا يعجب بأصواتهن ولا بسماعهن، مثل سُنتُف، وفيها يقول^(١):

وإن سكوتها عندي لبُشرى وإن غناءها عندي لمنعى
فقرطها بعقرب شهر زورٍ إذا غنّت وطوقها بأفعى

ومن أهم جوانب الضعف فيه أنه كان نهماً في الأكل نهماً شديداً، ولذلك يكثر
في أشعاره وصف الأطعمة من كل لون حلو وحامض، كما يكثر وصف الأشربة،
ومن عجب أن القدماء وصلوا بين هذا النهم وموته لسنة ٢٨٣ أو ٢٨٤ فقالوا إن
القاسم بن عبيد الله دسّ إليه السم في خشكتانجة، فلما ازدردّها أحسّ بالسم
في بطنه فقام مسرعاً؛ فقال له القاسم إلى أين؟ فأجابه إلى حيث أرسلتني،
فقال له: سلّم على والدي عبيد الله، فأجابه: ما طريقى على النار. والصحيح
أنه توفى عن نحو ستين عاماً نتيجة لعلله وأمراضه، وهى على كل حال سن
عالية.

ولا ين الروى ديوان ضخّم لم ينشر حتى الآن، إنما نشر منه الشيخ محمد شريف
سليم جزعين، ونشر منه كامل كيلافي مختارات باسم ديوان ابن الروى، وهو الذى
فرجع إليه غالباً. ومن يتصفح ما نُشر منه يلاحظ تَوّاً أنه يختلف عن دواوين
الشعر العربى التى عاصرتة وسبقته، ففيه موضوعات متنوعة عن الحياة وشرورها
وعن الناس وحرفهم وملابسهم وعن الموت وعن الأطعمة والأشربة ومُتَع الحياة،
وعن طبائع الناس وعن النساء وأخلاقهن وعن الطرد والقنص وعن المسرات
والآلام، بحيث يصبح من الصعب تشكيل موضوعاته بأعداد رقمية. ومع ذلك
سنعرض شعره على الموضوعات الأساسية للشعر العربى، مع ملاحظة ما يمتاز
به من صفات خاصة به وبشخصيته الشعرية الخصبية. ومرّ بنا فى الفصل
الماضى تصويرٌ من بعض الوجوه لذخائره العقلية، وكيف أدّاه اعتزاله مبكراً إلى أن

(١) الديوان ص ١٠٥.

يتمثل جميع الثقافات في عصره فلسفية وغير فلسفية . وإذا هو يستقصى المعاني استقصاء نادراً حتى لا يكاد يترك في معنى شعبة دون عرضها والإلمام بها ، وإذا هو يوغل في الأفكار ويستنبط منها مستوراتها الخفية ، وإذا هو يسلط عليها أشعة المنطق بكل أقيستها وعللها ، فتبدو في أضواء واضحة وضوحاً مطلقاً ، وليس ذلك فحسب فإنه استطاع أن يغير في سمات كل موضوع قديم بفضل ما ألقاه عليه من الأضواء والظلال العقلية . وهو بحق يمثل النزعة التجديدية في العصر ، على حين كان البحترى يمثل النزعة التقليدية على نحو ما مرَّ بنا في غير هذا الموضوع .

وأول ما نقف عنده المديح ، وبعض قصائده فيه يطول طولاً مسرفاً حتى لتبلغ القصيدة نحو ثلثمائة بيت ، وعادة يقدم لمداخحه بما تعارف عليه الشعراء من قبله من مقدمات ، ولكنه ينوع فيها ، فقد يختار النسب مثلاً ، ولكنه يتحوّل به كما في قصيدته النونية^(١) التي مدح بها أبا الصقر لإسماعيل بن بلبل إلى تجسيد فواكه البستان في المرأة ، حتى سَمَّى بعض معاصريه - كما أسلفنا - القصيدة باسم دار البطيخ وكانوا يطلقونها على دكان الفاكهة . وقد يختار وصف^(٢) الطبيعة والربيع ويُسبِّد في وصفه ، إذ كان مفتوناً بها فتنة العاشقين الواهلين ، مما يميزه بحق عن شعراء العربية . وقد يدمج في القصيدة وصف^(٣) مجلس سماع ؛ فيصور آلات للطرب ومن يَحْمِلُنَّهَا من القيان في صور بديعة على نحو ما يلقانا في نونيته التي مدح بها عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، والتي يفتتحها بقوله^(٤) :

وقيانٍ كأنها أمهاتٌ عاطفاتٌ على بنيتها حوانٍ

وقد أنشدنا منها قطعة في الفصل الماضي . ويضيف إلى وصف مثل هذا المجلس ذكر الخمر . وقد يختار بكاء الشباب الذي طالما تغنى به الشاعر العربي ، ولكنه يعرضه عرضاً جديداً على نحو ما نرى في مقدمة قصيدته البائية^(٤) التي مدح بها علي بن يحيى المنجم ، فقد تحدث فيها عن الشيب والحضاب ودعاه حداً كثيراً كثيراً

(٢) الديوان ص ٨٤ .

(٤) الديوان ص ١٧٧ .

(١) الديوان ص ٢٠ .

(٢) الديوان ص ٢٩٩ ، وقد دون كامل

كيلاني المقدمة وحدها دون المديح .

على الشباب من شأنه أن يبكي صاحبه بدموع غزار ، ثم أخذ يصور سخرية
الفتيات بخضابه باكياً الشباب بكاء لا ذعاً . ويحذف المقدمة أحياناً طلباً للاختصار
والوقوف عند عشرات الآيات لا عند المئات - وتبلغ بعض المقدمات عنده أحياناً
نحو مائة بيت - ويتفنن بعد ذلك في المديح ، ومن الطريف أنه كان يلاحظ أن
الشعراء فيه يببالغون ويفرطون في مبالغاتهم فينسبون إلى الممدوحين ما لا يفعلون ،
مسببة لا تحمى وعار ما بعده عار ، حتى ليصدق عليهم قوله تعالى : (والشعراء
يتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَتهِمُونَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ)
ويستوحى ابن الرومي الآيات قائلًا^(١) :

يقولون مالا يفعلون مسبةٌ من الله مسبوبةٌ بها الشعراءُ
وما ذلك فيهم وحده بل زيادة يقولون مالا يفعل الأُمراءُ
فهم يقولون ما لا يفعلون ، وليس ذلك فحسب ، بل يقولون أيضاً ما لا يفعل
الأُمراء ، كذباً وبُهتاناً . وكأن ابن الرومي أحسن في قوة ما كان يحمل المديح
لعصره من كذب صراح . وإذا كنا لاحظنا أنه حاول التنوع في مقدمات المديح فإننا
نلاحظ أنه حاول التنوع في المديح نفسه ، فإنه لم يقصره على المعاني المطروقة ،
ويوضح ذلك مديحه لعلي بن يحيى المنجم في بائته التي أشرنا إليها ، آنفاً ، فإنه مضى
فيها بمدحه على هذه الشاكلة :

لَوَدَعِيَ لَهُ فَوَادٌ ذِكْمِي ماله في ذكائه من ضريبِ
أَلْمَعِي يَرَى بِأَوَّلِ ظَنِّ آخِرَ الأَمْرِ من وراء المغيبِ
لا يروى ولا يقلب كفاً وأكفُ الرجال في تقلبِ
حازم الرأى ليس عن طول تجريدِ بٍ لبيبٍ وليس عن تلبيبِ
يتغابى لهم وليس لموقِ بل للبُّ يفوق لبُّ اللبيبِ
لَيْنُ عِظْفِهِ فَإِن رِيمٍ مِنْهُ مَكْسِرُ العود كان جدُّ صليبِ

وواضح أن هذا مديح من نوع غير مألوف ، مديح بالطباع والشمائل والملكات ؛

فهو يمدحه بالذكاء وحسن البديهة والنظر الثاقب ، دون إبطاء في الرأي أو ندم يلحقه ، وهو حازم لبيب بالفطرة ، يتغابى قصداً وسيد القوم المتغابى ، ويبدولين الملمس وهو صلب العود صلابة شديدة . ومصدر هذا الجانب في مديحه بدون ريب قدرته الخارقة على تحليل المعانى واستقصائها ، وكانت له قدرة خارقة أيضاً على النفوذ إلى كثير من الأخيلة المبتكرة من مثل قوله في حسّاد صاعداً مصوراً مجده الوطيد^(١) :

وَضْدٌ لَكُمْ لَا زَالَ يَسْفُلُ جَدُّهُ وَلَا بَرَحَتْ أَنْفَاسُهُ تَتَصَعَّدُ
 وَلَوْ قَاسَ بِاسْتِحْقَاقِكُمْ مَا مَنَحْتُمْ لِأَطْفَاءٍ نَارًا فِي الْحَشَا تَتَوَقَّدُ
 وَأَنْتَ مِنْ عِقْدِ الْعَقِيلَةِ جِيدُهَا وَأَحْسَنَ مِنْ سَرْبَالِهَا الْمُتَجَرَّدُ

وكانت لديه قدرة بارعة على عرض أخيلته في مثل هذه الأقيسة ، فصاعد يستحق مجداً عظيماً فوق ما مُنح من مجد الوزارة الذى أُسبغ عليه بفضل حزمه وحسن تدبيره ، وما مثل الوزارة بالقياس إليه إلا مثل العقد في الجيد الجميل جمالاً يفوقه ، بل مثل الثوب يُضفى على الجسد الفاتن . ويجمع بين جمال الحلقة والأخلاق في بعض ممدوحيه وينفذ إلى هذه الصورة البديعة^(٢) :

كُلُّ الْخِصَالِ الَّتِي فِيكُمْ مَحَاسِنُكُمْ تَشَابَهَتْ مِنْكُمْ الْأَخْلَاقُ وَالْخِلْقُ
 كَأَنَّكُمْ شَجَرُ الْأَتْرَجِ طَابَ مَعَا حَمَلًا وَنَوْرًا وَطَابَ الْعُودُ وَالْوَرَقُ

فهم مثل شجر الأترج يطيب عوده وورقه وزهره وثمره ، طيب على طيب ، وكثيراً ما تلقانا مثل هذه الأخيلة الدقيقة في مديحه كقوله في بعض ممدوحيه :

أَوْفَى بِأَعْلَى رَتْبَةٍ وَتَوَاضَعَتْ آلاؤُهُ فَأَحْطَنَ بِالْأَعْنَاقِ
 كَالشَّمْسِ فِي كَبَدِ السَّمَاءِ مَحَلُّهَا وَشِعَاعُهَا فِي سَائِرِ الْآفَاقِ

والهجاء فنّه الذى لا يبارى فيه ، وهو يتخذ عنده لونين : لوناً قائماً كله إقذاع وسبب وهتك للأعراض وقد يُطيل فيه إلى مئات من الأبيات ، ولوناً زاهياً ينحو

والترجمة والنشر) ص ٧٠ .
 (٢) زهر الآداب ٤/١٤٦ .

(١) زهر الآداب ١/١٨٣ وانظر المختار
 من شعر بشار لتنجي (طبع لجنة التأليف

فيه منحى السخرية والإضحاك ، وهو اللون الأهم في هجائه ، لأن اللون السابق كثيراً ما نجده عند سابقيه ومعاصريه ، أما الهجاء الساخر فقد نَسَمَاهُ إلى أبعد حد تُسَعِّفه في ذلك قدرة بارعة على استغلال العيوب الجسدية في مهجويته ، حتى ليصبح شبيهاً أدق الشبه بأصحاب الصور الكاريكاتورية ، فهم يستغلون العيوب الخلقية ويبرزونها بالطول أو بالعرض أو بالتضخيم أو بالتصغير لإبرازاً مضحكاً في كل صوره ، وكذلك كان ابن الرومي هَجَاءً ساخراً يعرف كيف يصور العيوب الجسدية والمعنوية تصويراً مضحكاً ، ومرَّ بنا في الفصل الماضي تصويره لشُحِّ عيسى بن موسى بن المتوكل وأنه لو استطاع لتنفس من منخر واحد أو فتحة واحدة من فتحتي أنفه بخلا وحرصاً ، وكذلك تصويره لبعض مهجوييه بحيوانات مجتره ، ولم يعجبه بعض المغنين فسوره في تحرك فكَّيه بالغناء بالبغل حين يحرك فكَّيه لأكل طعامه . ومرَّ بنا أنه كانت تؤذيه إيذاء شديداً رؤية جار له أحذب ، وانتقم لنفسه منه بقوله فيه (١) :

قَصُرَتْ أَخَادِعُهُ وَغَابَ قَدَالُهُ فَكَأَنَّهُ مَتْرِبُصٌ أَنْ يُصَفِّعَا
وَكَأَنَّمَا صُفِّعَتْ قَفَاهُ مَرَّةً وَأَحْسَّ ثَانِيَةً لَهَا فَتَجْمَعَا

فجعله الدهر مصفوعاً يحاول أن يتقى صفَّعه بتجميع قفاه إلى ظهره ، وكانت تؤذيه اللحي حين تخرج عن مقدارها الطبيعي فيهجوها ويهجوا أصحابها هجاء ساخراً مضحكاً ، وله فيها مقطوعات هزلية قصيرة وطويلة ، ومن أطرفها وأجمعها للهزؤ والسخرية قوله في لحية بعض مهجوييه (٢) :

إِنْ تَطَّلْ لِحِيَّةً عَلَيْكَ وَتَعْرُضْ فَاَلْمَخَالِي مَعْرُوفَةٌ لِلْحَمِيرِ
عَلَّقْ اللَّهُ فِي عِذَارِيكَ مِخْلًا وَ لَكِنُّهَا بَغِيرِ شَعِيرِ
أَرَعْ مِنْهَا الْمُوسَى فَإِنَّكَ مِنْهَا يَشْهَدُ اللَّهُ فِي أَنْثَامِ كَبِيرِ
مَا تَلَقَّاكَ كَوْسَجٌ قَطُّ إِلَّا جَوَّرَ اللَّهُ أَيْمَانَ تَجْوِيرِ
لِحِيَّةً أَهْمَلْتُ فَطَالَتْ وَفَاضَتْ فَإِلَيْهَا تَشِيرُ كَفُّ الْمَشِيرِ

(٢) ديوان المعاني للعسكري ١ / ٢١٠ .

(١) الديوان ص ١٤٦ .

ما رأتها عينُ امرئٍ ما رأتها
 روعةٌ تستخفه لم يرعها
 فاتق الله ذا الجلال وغير
 أو فقصر منها فحسبك منها
 لو رأى مثلها النبي لأجرى
 واستحب الإحفاء فيهن والحل
 قَطُّ إلا أهلٌ بالتكبير
 من رأى وجهه مُنكرٍ ونكير
 مُنكرًا فيك ممكن التغيير
 نصفُ شبرٍ علامة التذكير
 في لحيِ الناس سنة التقصير
 قَ مكان الإغفاء والتوفير

وقد استهل ابن الرومي المقطوعة بتشبيه تلك اللحية بمخللة حمار ولكن بدون شعير ، ونصح صاحبها أن يجعل الموسيقى يرهاها ويأخذها من جميع أطرافها ، وجعل محافظته عليها إثمًا كبيراً فإن الكوسج خفيف اللحية إذا رآها نسب إلى الله الجور والظلم في قسمة الأرزاق ، وقد طالت حتى غدت فرجة للرائحين والغادين يشيرون إليها بأكفهم وأصابعهم متعجبين ، بل إنهم ليصبحون الله أكبر ، للروعة الشديدة التي تأخذهم ، وإنها لأكثر هولاً من وجه ملكي القبر : منكر ونكير ، ويدعوه أن يتق الله ويغير هذا المنكر الذي يحمله على وجهه في ذهابه وإيابه ، أو ليقتصرهما ، فنصفُ شبرٍ منها كاف على التذكير والرجولة ، ويقول إن الرسول عليه السلام لو رآها لأبدل السنة فلم يجعلها تطويل اللحي بل جعلها تقصيرها ، بل لعله كان يجعل السنة قصها ومحوها محواً . وهو يشير في البيت الأخير إلى الحديث النبوي : « احفوا الشوارب واعفوا اللحى » . وكان كاتبٌ مسيحي للقاسم بن عبيد الله يسمى عمرًا كثيراً ما كان يحجبه ، فأصله ناراً حامية من أهاجيه^(١) . وكان لا يزل يلمح العيوب الجسدية في مهجويه ، عابثاً بهم عابثاً كله مسخرية وفكاهة يتندير .

وكان ابن الرومي يجيد فن الرثاء ، بحكم قدرته على التعبير عن الأحاسيس والمشاعر ، وأيضاً فإنه كان يستشعر في أعماقه حزناً ممضاً ، لأنه لا يأخذ حقوقه في عصره بالقياس إلى غيره من الشعراء الذين يتفوق عليهم تفوقاً واضحاً ، فكان شعوره

بالبؤس والحمران يضاعف حزنه ، وكأنما الحياة كلها أمامه كانت أحراناً ومآتم ،
وتصادف أن مات له ثلاثة أبناء ، فبكاهم بكاء حاراً ، ومسرّ بنا في الفصل الماضي بكأوه
على ابنه الأوسط الذي مات منزوفاً وهو لا يزال في المهده طفلاً صبيّاً ، وقد نصب
بقصيدته له مآتماً كبيراً صورّ فيه موته وزيفه تصويراً مخزناً ، ثم بكاه بكاء مرّاً .
ومن قوله في رثاء ابنه الثالث (١) :

أَبْنِيَّ إِنَّكَ وَالْعِزَاءَ مَعاً بِالْأَمْسِ لُفَّ عَلَيْكُمَا كَفْنُ
مَا فِي النَّهَارِ - وَقَدْ فَقَدْتِك - مِنْ أَنْسٍ وَلَا فِي اللَّيْلِ لِي سَكْنُ
مَا أَصْبَحْتُ دُنْيَايَ لِي وَطَنًا بَلْ حَيْثُ دَارَكَ عِنْدِي الْوَطَنُ

وله مرثية في أمه وأخرى في أخيه محمد ، وبجانب ذلك نجد له عزاء من حين
إلى حين ، وأسلفنا في الفصل الماضي عزاءه في ابنة علي بن يحيى المنجم ، وله عزاء
مشابه للمسيبي الكاتب صديقه يعزيه عن ابنته بأن أحداً لن يخلد في الدنيا ، وأن
تلك إرادة الله ولا راد لمشيئته ، يقول (٢) :

أُصْبِتَ وَمَا لِلْعَبْدِ عَنْ حَكْمِ رَبِّهِ مَحِيصٌ وَأَمْرُ اللَّهِ أَعْلَى وَأَفْهَرُ
تَعَزَّيْتَ عَمَّنْ أَثْمَرْتِكُ حَيَاتُهُ وَوَشَكُّ التَّعْزَى عَنْ ثَمَارِكُ أَجْدَرُ
فَلَا تَهْلِكُنْ حَزْنًا عَلَى ابْنَةِ جَنَّةٍ غَدَتْ وَهِيَ عِنْدَ اللَّهِ تَحِيًّا وَتُخْبِرُ

وكان ما نبى ينفذ إلى أخيلة ومعان طريفة حتى في الموت ، ولعله أول من حبّس
الموت إلى غيره ، وكأنما كان يراه خلاصاً من حياته ومن الناس والأصدقاء الذين
لا ينصفونه ، مما جعله يقول (٣) :

قَدْ قَلْتُ إِذْ مَدَحُوا الْحَيَاةَ فَأَكْثَرُوا لِلْمَوْتِ أَلْفَ فَضِيلَةٍ لَا تُعْرَفُ
فِيهِ أَمَانٌ لِقَائِهِ بَلْقَائِهِ وَفِرَاقٌ كُلِّ مَعَاشِرٍ لَا يُنْصَفُ
وتعبيره عن أن الموت أمان للإنسان من خوفه المروع بلقائه من أدق ما يمكن ،
وهو لا يبارى في النفوذ إلى كثير من المعاني والأحاسيس الدقيقة . وقد عرضنا في

(٣) ديوان المعاني ١٧٢/٣ .

(١) الديوان ص ٣١ .

(٢) الديوان ص ١٠٤ .

الفصل الماضي مرثيته المتهبة للبصرة حين حرقها الزنج ودمروها .
ويكثر العتاب في ديوان ابن الرومي ، وقصيدته في عتاب أبي القاسم التوزي
الشطرنجي مشهورة ، ومترنا في الفصل السالف قطعة بديعة منها في وصف
لعب أبي القاسم بالشطرنج ، وكان أمهر معاصريه في لعبه ، غير أنا نقف الآن
عند عتابه ، وقد عرضه عرضاً طويلاً طريفاً ، إذ أخذ يذكره بما كان بينهما من
صفاء ، ثم نشأت بعد ذلك هنوات لا يرضاها الصديق ، يقول :

كشفت منك حاجتي هنوات غُطِّيتُ برهةً بحسن اللقاء
تركتني ولم أكن سَيِّءَ الظَّنِّ نَّ أَسِيءُ الظنون بالأصدقاء
قلت لما بدتُ لعيني شُنعاً رُبَّ شوهاء في حشا حسناء

ومضى في حوار طويل بينه وبين تلك الهنوات الصغيرة ، يقول لها ليتني لم
أهتك سِتْرَكُنَّ وهن يقلبن له بل لقد صنعت حسناً ، إذ لو لم تفعل ذلك لظلت في
ظلمة الشك من صاحبك ضالاً حائراً ، وإن من الخير أن ننكشف لك حتى تعرف
أمكنة الداء منه وتطب لها طبياً يداويها دواء يشفي الصديق ، ويعتب على أبي القاسم
أنه لم يُنلِه نوالاً ولا رَدًّا كريماً ، ويظل يستعطفه طويلاً . وقد أسلفنا في الفصل
الماضي قطعة بديعة له في عتاب آل وهب .

ولابن الرومي غزل كثير يأتي به مستقلاً تارة ، وتارة في مقدمات قصائده ، وقلما
يصوغه بصيغة المذكر مما يدل على أنه لم يكن صاحب غلمان مثل أبي نواس أو حتى
مثل البحري ، ومرت في الفصل الماضي قطع مختلفة له في وصف العناق وجمال العيون
ومن بديع ماله في وصف الشعر المسترسل حتى مواطئ القدم قوله (١) :

وفاحمٍ واردٍ يقبلُ مَمَّ شاكٍ إذا اختال مسبلاً عُدرَه (٢)
أقبل كالليل من مفارقه منحدرًا لا يذمُّ مُنحدرَه
حتى تناهى إلى مواطئه يلثم من كل مواطئ عَفْرَه (٣)
كأنه عاشقٌ دنا شغفًا حتى قضى من حبيبهِ وَطْرَه

(٣) العفر : ظاهر التراب .

(١) زهر الآداب ١٦/٣ .
(٢) العدر : نوائب الشعر وقطعه .

وهي صورة فريدة أسعفته بها قدرته على الاستقصاء في وصف المحسوسات ،
وكثيراً ما يفجأ قارئه بمثل هذه الصور النفيسة في غزاه ، وكأنما تحول عقابه إلى ما يشبه
كنزاً سائلاً بالدرر ، فهو لا يني يطرف قارئه بمعنى مُسْتَحْدَثٍ أو خيال مبتكر
من مثل قوله (١) :

لا شيء إلا وفيه أحسنه فالعين منه إليه تنتقل
فوائد العين منه طارفةً كأنما أخرياتها الأولُ

فكل شيء وكل عضو في صاحبه فتنة من الفن حسناً وجمالاً ، فالعين
ما تزال تنتقل ، وكلما تركت عضواً عادت إليه مفتونة ، حتى لكأنما انمحت
فكرة الأول وأعقابها ، فكل شيء من الأول ، وكل شيء لا يكاد النظر
يفرغ منه حتى يعود إلى التملُّ به . وله قافية نظمها في جارية سوداء لممدوح له من
البيت العباسي هو عبد الملك بن صالح ، وفيها يقول معللاً علة حسنة لسوادها :

أكسبها الحب أنها صُبغت صبغة حبِّ القلوب والحدق

ويبدو أن بعض الجوارى عبَّشنَ به وغدَرَنه في حبه ومسكرَن مكرراً خبيثاً ،
ولذلك نراه في نونيته المسماة بدار البطيخ يُصدر أحكاماً قاسية على النساء عامة ،
من مثل قوله (٢) :

ومن عجائب ما يُمنَى الرجال به مستضعفاتُ لهم منهن أقرانُ
مناضلاتُ بنبلٍ لا تقوم له كتابُ التُّرك يُزجيهنَّ خاقانُ
ولا يدمنَ على عهدٍ لمعتقد أنى وهن - كما شُبهنَ - بستانُ
يميل طوراً بحمل ثم يُعذمه ويكتسى ثم يُلفى وهو عريانُ
يغدرن والغدر مقبوحٌ يزينه للغايات وللغاوين شيطانُ

وقد يكون دافع ابن الرومي إلى مثل هذه الأحكام القاسية على المرأة في عصره
شروع دور القيان ببغداد وأن كثيرات من الجوارى لم تكن سيرتهن حسنة .

(٢) الديوان ص ٢٠ وما بعدها .

(١) ديوان المعاني للمسكري ١/٢٣٢ .

وكانت الطبيعة تستأثر بكل مشاعره وعواطفه ، مما جعله يكلفُ بها ككَلْفًا شديدًا ، بل لقد تحوّل عاشقًا لها عشقًا لا نألفه عند شعراء العربية من قبله ، فهو يعيش فيها مع كل حركة وكل همسة وكل وسوسة معيشة قوية حارة ، معيشة محبِ والده ، يرى الطبيعة من حوله ، وقد تحولت وجوهًا فاتنة ناطقة ، وكل شيء فيها يُغريه بالنظر واللمس والشم ، حتى لنحس كأنما يفنى في الطبيعة فناء أصحاب المنزع الرومانسي الغربي ، وكأنما الحجب تُرفعُ بينه وبينها في كل يوم فيزداد بها ولهاً ويزداد سروراً وغبطة ، وقد عرضنا في الفصل الماضي منظر الغروب وتجسده لوداع الشمس للطبيعة وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة . ونكتفي هنا بأن نسوق مثلاً لتصويره الربيع ، يقول^(١) :

ورياض تخايلُ الأرض فيها	حُيَلَاءُ الفتاة في الأبرادِ
ذات وَشْيٍ تناسجته سوارٍ	لبقاتٌ بحوَّكه وغوادي ^(٢)
فهى تُشنى على السماء ثناء	طيبَ النَّشْرِ شائعاً في البلادِ
من نسيمٍ كان مسراه في الأر	واح مسرى الأرواح في الأجسادِ
منظرٌ معجبٌ تحيةٌ أنفِ	ريحها ريح طيب الأولادِ
تتداعى بها حمائمُ شتى	كالبواكى وكالقِيان الشوادي
تتغنّى القِرانُ منهن في الأيِّ	لكِ وتبكي الفردُ شَجَوَ الفردادِ

فالأرض تتراعى له كأنها فتاة حسناء تختال في برود الربيع البهيجة ، وشيها الذى نسجته السحب نسجاً بديعاً ، وهى تُشنى على السماء ثناء عاطراً ، والنسيم يسرى في الأرواح سريان الأرواح في الأجساد ، وما أجمله من منظر وما أروعهُ من عطر للطبيعة يملأ النفس حناناً وعطفاً كرائحة الأولاد النجباء ، والحمائم تتناغى بين باكيات وشاديات ، أما الشاديات فيتغنن لرفقائهن ، وأما الباكيات فنفرادات ليس لهن قرين ، وكأنهن يبكين الانفراد . والقطعة تعجُّ بالحياة ، بل قل إنها تعج بالحب حب شاعر أغرم بالطبيعة وملأت قلبه برأً وحناناً ومودة . ولقت هذا الجانب

(١) الديوان ص ٧٥ السوارى والغواذى : السحب .

(٢) تناسجته : اشتركت في نسجه .

عند ابن الرومي العقاد، فقال إنه أثر من آثار وراثته اليونانية، ولكن اليونان لم يُعرف عندهم شعر الطبيعة، هم ملأوها بالآلهة، ولكنهم لم يفصحوا عن مشاعرهم إزاءها على نحو ما نجد عند ابن الرومي، وأوروبا نفسها في عصرها الكلاسيكي في أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر، حين كانت تحاكي الآثار اليونانية، لم يُعرف عندها هذا النوع من الشعر، إنما عُرِف في العصر الرومانسي في أثناء القرن التاسع عشر، حين انفكَّت من محاكاة الآثار اليونانية^(١). على كل حال كان ابن الرومي يُشغَفُ بالطبيعة ويكسِفُ بها كسافاً لم يعرف لشاعر قديم.

وجعلته قدرته على نقل المشاهد الحسية يسرع في وصف مجالس الأُنس وما يجرى فيها من خمر وسماع. وهو لا يتورط في المجون والإثم تورط أبي نواس وأمثاله، وليس معنى ذلك أنه لم يكن يحتسى الخمر، فقد كان شربها شائعاً في عصره، ومرّت بنا في غير هذا الموضع الأبيات المشهورة التي يقول فيها إن أبا حنيفة أحلَّ النبيذ. ودعا الخمر في بعض شعره ريق الدنيا، يقول:

فتى هجر الدنيا وحرّم ريقها وهل ريقها إلا الرحيق المبرّد

وقد أكثر من وصف مجالس السماع، وجعله ذلك يكثر من وصف المغنين والمغنيات، وكانت أذنه مرهفة وشعوره حاداً، فإذا لم يقع المعنى أو المغنية من أذنه موقعاً حسناً صبَّ عليهما شواظاً من هجائه، على نحو ما مرّ بنا في هجائه لشنظف، ولعل أروع تصوير لمغنية محسنة تصويره لغناء وحيد، وكانت فتنة صوتاً وحسناً، وفيها يقول^(٢):

من سكون الأوصال وهي تجيد	تغنى كأنها لا تغنى
لك منها ولا يدُرُ وريد ^(٣)	لا تراها هناك تجحظ عين
وسجُو وما به تبليد ^(٤)	من هدو وليس فيه انقطاع
فِ كَأَنفَاسِ عاشقيها مديد	مدّ في شأو صوتها نَفَسٌ كا

(٣) يدر: ينتفخ ويتور. الوريد: عرق

في العنق.

(٤) الهدو: انخفاض الصوت. السجو:

مده. التبليد: التقطع.

(١) انظر في مناقشة هذه المسألة كتابنا

الفن ومذاهبه في الشعر العربي (طبع دار

المعارف) ص ٢٠٨ وما بعدها.

(٢) الديوان ص ٩٨

واشتهر بإكثاره من وصف ألوان الطعام والفاكهة ، وقد ذكرنا له في الفصل الماضي قطعاً مختلفة في وصف دجاج مشوى ومرققات وقطائف وعنب رازق ، وديوانه زاخر بأمثالها ، وهي أثر من آثار نهجه في الطعام ، وأيضاً من آثار براعته في وصف كل ما يشاهده ويقع عليه حسه ، وله قطعة معروفة في وصف الرقاق وأخرى في وصف قالى الزلايية يقول فيها (١) :

كَأَنَّما زَيْتُهُ المَقْلِيُّ حين بدا كالكيمياء التي قالوا ولم تصب
يُلْتَقى العجيين لُجَيْنًا من أنامله فيستحيل شبابيكاً من الذهب (٢)

وهذا الجانب عنده جعله قريباً من ذوق العامة ، وأدنى إلى أن يصبح شاعراً شعبياً ، ومن تنمة هذه الشعبية فيه أن نراه يصف الحمّالين والشوّائين ، كما يصف الثياب البالية ، وكان قد تعلق بوصفها الشاعر المعروف باسم الحمدرنى ، فنزع منزعه في هذا الجانب بمثل قوله (٣) :

معمرٌ قال نوحٌ حين أبصره إنا محيوك فاسلمم أيُّها الظلُّ
أميل في الطَّرْقِ خوفاً من مزاحمة تهده فكأنّ شاربٌ تسمِلُ

وأكبر الظن أن هذا الجانب الشعبي هو الذى جعله يهتم بالزهاد والوعاظ ، وليس في حياته ما يصله بالوعظ والزهد ، وقد ذكرنا له موعظة في الفصل الماضي ، وكأنما كان يتغنى مشاعر الشعب في وعظه وتصويره للزهاد . وحقاً أن ديوانه يجرى فيه تشاؤم واسع ، ولكن التشاؤم شيء والزهد شيء آخر ، فالزهد انصراف عن الدنيا ومتاعها الزائل ، والتشاؤم — وخاصة عند ابن الرومى — نقمة على فقدان المتاع بالحياة ، وهى نقمة صُيِّت على شاعر نابه امتاز بقلب ذكى وحس مرهف وشعور دقيق ، ففضى في كثير من جوانب شعره بصور الحياة سوداء حالكة ، ويتخذها هى والناس وشروهم وطباغهم موضوعاً لدرسه وشعره . وعلى نحو ما كانت لديه قدرة على وصف كل ما يقع عليه حسه بجميع جزئياته كانت لديه قدرة على النظرات الكلية الجامعة ، فإذا

(٣) انظر مقطوعات أخرى في الديوان ص ٣١٨ .

(١) الديوان ص ٣٧١ .
(٢) اللجين : الفضة .

هو يضع لبعض الأخلاق الذميمة صوراً مجسمة كصورة المتكبر^(١) والأكول^(٢) والثقليل^(٣)، وبالمثل الأخلاق المحمودة كالصبر والتجملد، وقد مثلنا في الفصل الماضي لهما بقطعة من شعره .

وكان ابن الرومي لا يعود إلى أشعاره بتنقيح ولا تهذيب، وكان إذا نظم أكثر وامتد نفسه امتداداً بعيداً . فكان طبيعياً أن يكون في أشعاره ما يهبط درجات عما حوله ، ففيها المصقول وغير المصقول، وفيها ما يرتفع إلى الأفق الأعلى وما يندنو إلى الآفاق الدنيا ، بحكم أنه لا يعاود عمله، ويؤكد ذلك ما يروى عن تلميذه أبي عثمان الناجم من أنه رآه ذات مرة قد غضب، فصنع قصيدة طويلة لساعته كلها هجاء، فسأله أين مسودتها ؟ . فأجاب : هي هذه، فقال له الناجم : ما فيها حرف مصلح ، فقال : قد استوت بديهتي وفكرتي فما أعمل شيئاً فأكاد أصلحه . وليس معنى ذلك أنه يوجد في أشعاره غثّ كثير ، فقد تلافى ذلك عنده ما امتاز به من أفكار وأخيلة نادرة ، وما كان يحرص عليه من بث الفنون الجديدة في أشعاره وخاصة الجناس ، وكانت له أذن موسيقية رائعة . وكل ذلك حمى الصياغة عنده من الهبوط عن المستوى الرفيع إلا ما كان يريد أن يقترّب فيه من الذوق الشعبي ، لشعبية كانت متأصلة في ذات نفسه . والحق أنه كان شاعراً بارعاً ، بل لا شك في أنه أبرع شعراء العصر لما يحفل به ديوانه من الموضوعات والمعاني والأخيلة المبتكرة مما يملأ النفس إعجاباً متصللاً به وبأشعاره .

٤

ابن المعتز^(٤)

وُلد عبد الله لأبيه المعتز بسامراء قبل مقتل جده المتوكل في سنة ٢٤٧ للهجرة بأربعين يوماً ، فلم يكد يستقبل الحياة حتى صرّح جده هذا المصرع الخطير ،

للصولي ص ١٠٧ وما بعدها وكتاب الأغاني
(طبعة دار الكتب المصرية) ٢٧٤/١٠
والفهرست ص ١٧٤ وتاريخ بغداد ٩٥/١٠
ومروج الذهب ٢٠٣/٤ والطبري ١٠/١٤٠
وزنه الألباء لابن الأنباري وابن خلكان =

(١) الديوان ص ٩٥ .
(٢) الديوان ص ١٧٥ .
(٣) الديوان ص ٧٣ .
(٤) انظر في ابن المعتز وحياته وشعره
كتاب الأوراق : أشعار أولاد الخلفاء

صرّعه جنده وقواده الأتراك الذين فسّح لهم في الحكم والسلطان والتسلط ، فإذا هم يسفكون دمه غير مراعين عهداً ولا ذمّة . وسرعان ما يتوقفى ابنه المنتصر الذى خلفه ، ويصبح الخلفاء لعبة في أيديهم ، فيولّون المستعين ويخلعونه ويقتلونّه ، ويولّون المعتز (٢٥٢ - ٢٥٥ هـ) وكان لا يزال في نحو العشرين من عمره ، وكان جميل الوجه ، وكأنما ورث جمال أمه الرومية التى سماها المتوكل قبيحة لجمال صورتها ، من أسماء الأضداد ، وكان مرهف الحس رقيق الذوق دقيق المشاعر ، مما أنطقه بالشعر المصفى . وكان يعكف على النهو والصيد . فجالسها لا تزال غاصة بشارية وعريب وزنّام وابن بنان وغير هؤلاء من الغنيات والمغنين ، ومواكبه لا تزال ذاهبة آيبة من الصيد . وفي مواضع مختلفة من كتاب الديارات للشابى نرى قصفه وشرايه وسامعه للغناء في قصره وفي بعض الأديرة (١) ، ونطلع على جانب من ترفه في قصره « الزوّ » و « الكامل » بسامراء ، وسرّ بنا وصف البحترى للقصر الأخير وبستانه الممتد أمامه ، ولعله نفس البستان الذى كان يزخر بالحيوانات ، والذى كان يتسلّى بالفرجة فيه هو وأصدقاؤه على السبع والفيل كيف يتوائبان (٢) .

وكانت أم عبد الله بدورها من الجوارى ، ولعلها كانت أيضاً رومية الأصل مثل جدته ، فقد كان جميل الحياء ، وورث عن أبيه كل طباعه ، فهو مثله جميل السجايا رقيق المشاعر . وكان ذكى القلب صافى العقل ، فأضاف إلى ترفه الذى نشأ منغمساً فيه إقبالا متصلا على الدرس منذ نعومة أظفاره ، حتى ليلفت ذلك البحترى ، وهو لا يزال في التاسعة من عمره ، فيمدحه قائلا (٣) :

أبا العباس برزت على قومه لك آداباً وأخلاقاً وتبريزا
فأما حلبة الشعر فتستولى على السبق بها فرضاً وتميزا

وطبعة القاهرة ، وطبع بعض المستشرقين منه جزوين في إستانبول . وتوجد منه مخطوطة برواية الصولى بدار الكتب المصرية .

(١) الديارات ص ١١٠ ، ١٦٤ .

(٢) الديارات ص ١١١ .

(٣) ديوان البحترى ٢ / ١١١٩ .

= وفوات الوفيات ١ / ٢٤١ و مرآة الجنان
اليافى ٢ / ٢٢٥ وشذرات الذهب ٢ / ٢٢١
والنجوم الزاهرة ٣ / ١٦٤ وفي مواضع مختلفة
وعبد الله بن المعتز العباسى لمحمد عبد العزيز
الكفراوى (طبع مكتبة نهضة مصر) بالقاهرة
وديوانه طبعة بيروت ، وهى التى ترجع إليها

وقد يكون في ذلك مبالغة على عادة الشعراء في الديدح، لكن على كل حال في البيتين وقصيدتهما ما يدل بوضوح على أن ابن المعتز كان يكبُّ على القراءة وأن موهبة الشعر بدأت تستيقظ في نفسه في هذه السن الصغيرة . ويبدو أن أباه كان معجباً به إعجاباً شديداً مما جعله يضرب باسمه الدنانير . ويسجل ذلك البحترى في مدحة (١) طويلة له ، يصور فيها جمال طلعتة وشائله الكريمة ، ثم يقول :

وأهجننا ضَرْبُ الدنانير باسمه وتقليده من أمرنا ما تقلداً

وفي الشطر الثاني ما يصور إرهاب البحترى للمعتز بأن يولىَّ عبد الله العهد، ومضى يصرِّح بذلك ويطالب به ويهتف في وضوح . ونراه في قصيدة (٢) الثالثة يتشفع لعبد الله بأبيه كمن يهب له من إقطاع أقطعه له ضيعة تجاور ضياعه بالشام ، وفي ذلك يقول في قصيدة رابعة (٣) :

وملِّيتَ عبدَ الله إنَّ سَاحَهُ هو القَطْرُ في إسباله وأخو القَطْرِ
شفعتَ إليه بالإمام وإنما تَشَفَّعتُ بالشمس اقتضاءً إلى البَدْرِ

ولم يلبث الدهر أن قلب ظهر المحن للمعتز وابنه ، فإن جند الأتراك طالبوه في السنة الرابعة من خلافته وبرواتبهم وكانت خزائن القصر خالية من المال ، فاعتذر ، ولم يقبلوا عذره ، وظلوا يفاوضونه حتى قبلوا أن يدفع إليهم خمسين ألفاً ، ولكنه لم يجدها ، فصمموا على خلعه ، وهجموا عليه وضربوه بالدبابيس ، ثم جعلوه في بيت أوصدوا بابه حتى مات بعد أن أشهدوا عليه أنه خلع نفسه . وصادروا أموال أمه قبيحة كما مرَّ بنا في غير هذا الموضع ، ونفوها إلى مكة ونفوا معها عبد الله ابنه وابني عميه قُصَيَّ بن المؤيد وعبد العزيز بن المعتمد . وهما محنتان قاسيتان أضرَّتَا في نفس الصبي آثاراً بعيدة : محنته التي امتحن بها في أبيه الذي منحه الحياة والذي كان يغمره ببره وحنانه وعطفه ، ومحنته بالنفي وعذابه ونكاله وعناثه ، وما مرَّ به في أثناء ذلك من أمل ويأس ورجاء وقنوط ، مع ما صلَّى به من حزن عميق على أبيه ، مما ظل له أثر بعيد في نفسه ، وهو أثر يترامى بوضوح في أشعاره ، إذ يُطالِعنا

(٢) الديوان ١٠٠٧/٢

(١) الديوان ٦٧٠/٢

(٢) الديوان ١٣٠٩/٢

فيها دائماً الإحساس بالآلام الحياة وما تكتظ به من كوارث وفواجع ، كبرها في نفسه
 وخياله ما كان ينعم به في صباه من ترف وحياة لاهية لم تلبث أن حنفت بها الدماء
 المسفوكة ، دماء أبيه ، كما حفت بها النبي والتشريد ، فإذا النعيم يصبح جحيماً ،
 وينقضى عهده إلى غير مآب ، وفي ذلك يقول ابن المعتز باكيًا صباه بدموع
 غزار (١) :

لَهَقِي عَلَى دَهْرِ الصَّبَا الْقَصِيرِ وَغُصْنَهُ ذِي الْوَرَقِ النَّضِيرِ
 وَسُكُودِ وَذَنْبِهِ الْمَغْفُورِ وَمَرَحِ الْقُلُوبِ فِي الصُّدُورِ
 وَطُولِ حَبْلِ الْأَمَلِ الْمَجْرُورِ فِي ظِلِّ عَيْشٍ غَافِلٍ غَرِيرِ

ودار عام وتولت المعتمد الخلافة لسنة ٢٥٦ فأرسل في طلبه وطلب جدته وابني
 عمه وردهم إلى سامراء ، وكانت شؤون القصر أخذت تستقيم ، فلم يعد للترك
 تسلطهم ولا استطالتهم على الخلفاء ، إذ جعل المعتمد الأمر والنهي والسلطان لأخيه
 الموفق طلحة ، وكان من أحزم بني العباس وأشجعهم وأنبغهم في إدارة السياسة والحرب
 وهو الذي قضى على ثورة الزنج وثورة الصنفاريين كما أسلفنا في غير هذا الموضع .
 فاطمأن الغلام المروع وأخذت جدته قبيحة تُعْنَسِي بتربيته ، وأحضرت له المعلمين
 في الفقه والحديث والأدب واللغة ، من مثل محمد بن عمران والحسن العنزي
 الإخباريين ، ومحمد بن هبيرة صاحب الفراء ، ويبدو أنه كان يأتي المبرد وثلعبًا في
 أثناء زيارتهما لسامراء قبل انتقاله ونزوله ببغداد لسنة ٢٧٦ . وفي المختار من شعر
 بشار أن ثلعبًا كان أحد مؤدبيه فقطعه وقتًا ، فكتب إليه من قصيدة طريفة (٢) :

يَا فَاتِحًا لِكُلِّ عِلْمٍ مُغْلَقٍ وَصَيْرَفِيًّا عَالِمًا بِالْمَنْطِقِ
 إِنَّا عَلَى الْبِعَادِ وَالتَّفَرُّقِ لِنَلْتَقِي بِالذِّكْرِ إِنْ لَمْ نَلْتَقِ

وكان يقصد فصحاء الأعراب ويأخذ عنهم (٣) . وأهم معلميه أحمد بن سعيد
 الدمشقي المحدث الإخباري ، ويروى أن البلاذري المؤرخ سعى عند جدته كى
 يصبح من معلميه ومؤدبيه ، فغضب ابن سعيد ولزم بيته ، وكانت سن ابن المعتز

(١) ديوان المعاني ١٥٣/٢ .

. التأليف والترجمة والنشر) ص ٥٤ .

(٢) المختار من شعر بشار (طبع لجنة

(٣) الفهرست ص ١٧٤ .

حينئذ ثلاثة عشر عاماً ، وعلم بغضب أستاذه فكتب إليه أبياتاً يترضاها بها ، وهي تصور ثقافته تصويراً دقيقاً ، إذ يخاطبه بقوله (١) :

أصبحت يا ابن سعيدٍ حُزتَ مكرومةً عنها يقصّر من يحفني رِبْتَعِلُ
سُرُّ بَأْتِنِي حِكْمَةً قَدْ هَدَّبْتُ شِيْمِي وَأَجَجْتُ عَرَبَ ذَهْنِي فَهُوَ مُشْتَعِلُ
أَكُونُ إِنْ شِئْتُ قُوسًا فِي خَطَابَتِهِ أَوْ حَارثًا وَهُوَ يَوْمَ الْفَخْرِ مُرْتَجِلُ
وَإِنْ أَشَأُ فَكَزَيْدٍ فِي فَرَائِضِهِ أَوْ مِثْلَ نَعْمَانَ مَا ضَاقَتْ بِي الْحَيْلُ
أَوْ الْخَلِيلَ عَرُونِيًّا أَخَا فِطْنٍ أَوْ الْكِسَائِيَّ نَحْوِيًّا لَهُ عَيْلُ
عُقْبَاكَ شُكْرٌ طَوِيلٌ لَا نَفَادَ لَهُ تَبَقَى مَعَالِمُهُ مَا أَطَّتِ الْإِبِلُ (٢)

وهو يقول إن ابن سعيد خسرَّجه خطيباً فصيحاً لا يقل عن قُوسٍ في خطابته التي اشتهر بها بين الجاهليين ، كما لا يقل عن الشاعر الجاهلي الحارث بن حازمة في شعره وبدايته ، ولا عن زيد بن ثابت في عمله بالميراث ، ولا عن أبي حنيفة في علمه بالفقه ، ولا عن الخليل بن أحمد في علمه بالعروض ، ولا عن الكسائي في النحو واستنباط علمه . وهذه هي مواد ثقافته في سن الثالثة عشرة ، ولم يذكر بينها فاسفة ولا منطقاً ، غير أنه ينبغي أن نحذر التعميم في الحكم على ثقافته مما قاله عن نفسه في تلك السن المبكرة ، ومن الطبيعي - وكان نهما بالقراءة - أن يكون قد اطلع على شيء من الفاسفة وقرأ بعض كتب الفلك والتنجيم ، ففي أشعاره إشارات لهما (٣) ، وإن كنا نظن ظناً أنه لم يلم بذلك في مطالع حياته . ولعل من الطريف أن نجده يقول (٤) :

ولا تفرعن من كل شيءٍ مفزَعٌ فيما كل تربيع النجوم بضائرٍ

وكانه كان يتشكك في حسابات المنجمين وما يزعمونه من طوابع السعد والنحس . ومضى يمنح أوقاته للشعر والأدب ، وكأما قرر بينه وبين نفسه الانصراف عن السياسة وشئون السلطان ، فقد بلا منهما في جده المتوكل وأبيه المعتزما جعله يقرر في حزم

(١) السابعة) ص ٢٦٣ .

(٤) الديوان ص ٢٤٩ .

(١) معجم الأدباء ١ / ١٣٣ .

(٢) أطت : أنتت تمياً أوحيننا .

(٣) الفن ومذاهبه في الشعر العربي (الطبعة

الفراغ للحياة الأدبية ، وأنفق في ذلك أعواماً كثيرة . وكان يقرأ كتابات سابقيه ويفكر فيما يقرأ منها ناقداً محللاً، وما نصل إلى سنة ٢٧٤ للهجرة حتى نجده يصنّف كتابه « البديع » محاولاً أن يضع من جهة لأول مرة فنونه وضعاً علمياً دقيقاً، وأن يثبت من جهة ثانية أن هذه الفنون قديمة في الأدب العربي وكل ما للمحدثين العباسيين منها إنما هو الإكثار ، أما بعد ذلك فهي مشورة في القرآن الكريم والحديث النبوي وأشعار الجاهليين والإسلاميين . وألف كتباً أدبية أخرى كثيرة مثل كتاب الزهر والرياض ومكاتبات الإخوان بالشعر وكتاب الجوارح والصيد ، وكتاب فصول التائيل في الشراب وآدابه ، وكتاب السرقات ، وكتابه « طبقات الشعراء المحدثين » ذائع مشهور وهو يصور ثقافة واسعة بالشعر العباسي الحديث كما يصور نظرات نقدية طريفة وذوقاً مهذباً صافياً . وكان يُعنى منذ فواتح حياته بالغناء والموسيقى ، وفي ذلك يقول أبو الفرج الأصبهاني : « كان عبد الله حسن العلم بصناعة الموسيقى والكلام على النغم وعلها ، وله في ذلك وفي غيره من الآداب كتب مشهورة ، ومراسلات جرت بينه وبين عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وبين بني حمدون وغيرهم تدل على فضله وغزارة علمه وأدبه^(١) » . ويسوق أبو الفرج رسالة لعبيد الله إلى ابن المعتز ، ومنها نعرف أنه كان يميل في الغناء إلى التجديد ولا ينكر أن يغير الإنسان بعض نغم الغناء القديم ، ثم يورد أبو الفرج من صنعه بعض أصوات أو أدوار تدل في وضوح على أنه استطاع أن يتخطى دَوْرَ المتاع بالغناء لعصره إلى دور الإنتاج فيه إنتاجاً ممتازاً جعل العصور تحمله من بعده ، وكثيراً ما كان يزوره بعض المغنين والمغنيات ويغذونه فيما يصنع من الشعر . ومن الجوارى اللاتي كن يكثرن من الاختلاف إليه والغناء في شعره زرياب وبنيت الكُرَاعَة وخزاعي، على نحو ما يحدثنا عنهن أبو الفرج في ترجمته .

وكان ابن المعتز يأخذ بنصيب غير قليل من متاع الحياة^(٢)، وكأنه ورث عن أبيه كل مزاجه ، أو قل هي حياة التصور المترفة التي تدفع من يعيشها إلى اللهو، مما جعله يفتح بيته للندماء في بعض الأيام وبعض الليالي يسمعون ويشربون، وكان أكثرهم من الشعراء أمثال النميري، وبينهما مراسلات شعرية طريفة، وعلى بن مهدي

(١) الأغاني ١٠ / ٢٧٦ .

(٢) الديارات ص ٧٢ .

الأصبهاني الكسروي وبينهما مكاتبات بالأشعار ومجاوبات^(١) وجَحَظَّة وهو الذي أعطاه لقبه الذي اشتهر به . وكان شغوفاً مثل أبيه بالصيد ، وسنعرض لبعض أشعاره فيه . وينبغي أن نلاحظ أن مجالسه لم تكن لهواً خالصاً ، فقد كان يختلف إليه نابهن كثير من علماء اللغة والأدب وفي مقدمتهم المبرد ونعاب أستاذه وصديقه ، ويقول الصولي في ترجمته له بكتابه الأوراق : « كانت داره مغائلاً لأهل الأدب وكان يجالسه منهم جماعة » .

ومرَّ بنا أن أباه وهبه إقطاعاً كبيراً بالشام ، ولا بد أن يكون قد وهبه إقطاعاً أو إقطاعات أخرى في العراق ، ومن أجل ذلك كنا نخالف من زعموا أنه كان يعيش في إقلال ، ثم كان عنده ما ورثه عن جدته قبيحة وإن كان القائد التركي صالح ابن وصيف صادر أموالها ، فقد كانت لها بقية عاشت منها حتى توفيت سنة ٢٦٤ . ولا بد أنه كان ينال راتباً كثيراً أو قليلاً من الدولة لعهد عمه المعتمد الذي امتد حتى سنة ٢٧٩ ، ويروي الصولي قصيدتين له مدحه بهما ، وفي إحداهما يقول^(٢) :

أهلاً وسهلاً بالإمام ومرحباً لو أستطيع إلى اللقاء سبيلاً

ولعل ابن المعتز نظم هذه القصيدة بعد أن ردَّ الموقف أخاه المعتمد عن الموصل إلى بغداد لسنة ٢٦٩ وكان قد ظن بأخيه الموقف الظنون وعزم على اللحاق بمصر . وقد يكون في ذلك ما يدل على أن الناس ومعهم ابن المعتز كانوا يخشون حينئذ لقاء الخليفة خوفاً من غضب أخيه وبطشه . وفي أخبار ابن المعتز أنه كان يروي أشعار عمه المعتمد ، مما يدل على أنه كان كثير الاختلاف إلى مجالسه ، وكان عاكفاً على الملاذ والملاهي ، فكان طبيعياً أن يتصل الوديين العم وابن أخيه وخاصة إذا كان مثل ابن المعتز شاعراً وإخبارياً ظريفاً . ونراه يسوق إلى عمه الموقف الذي أبلى بلاء عظيماً في محاربة الزنج والقضاء على صاحبهم قضاء مبرماً غير مدحة ، ويبدو أنه

الخلفاء ص ١٣١ أنها في المتضد .

(١) معجم الشعراء ص ١٤٩ .

(٢) الديوان ص ٣٧٦ وفي أشعار أولاد

أكثر حينئذ من تهانيه بظفره . من مثل قوله (١) :

ولما طغى أمر الدعوى رميته بعزم يردُّ السيف وهو كليل
وأعلمته كيف التصافح بالقنأ وكيف تروى البيض وهي محول (٢)

ويتوفى الموفق في سنة ٢٧٨ ويخلفه ابنه المعتضد وكان لا يقل شجاعة وحزمًا عنه وكان عونته وظهيره في حرب الزنج ، ويسلم عمه المعتمد مقاليد الأمور إليه ، ويتوفى سنة ٢٧٩ فيخلفه المعتضد ، وكان مهيبًا شديد الوطأة ، فخافه قواد الترك ، وظلوا كما كانوا في عهد أبيه خانعين . ويتحول بالخلافة إلى بغداد وتصبح حاضرة الدولة ، ونرى ابن المعتز يوجه إليه مدائح مختلفة يطلب فيها الإذن له بالتحول من سامراء إلى بغداد من من مثل قوله (٣) :

لعمري لئن أمسى الإمام ببلدة وأنت بأخرى شائق القلب نازع
وما أنا في الدنيا بشيء أناله سوى أن أرى وجه الخليفة قانع

ويأذن له المعتضد وينزل بغداد، وتتحول داره إلى ندوة كبيرة للعلماء والأدباء، ويكثر المبرد من الاختلاف إليه فيها ، وتروى كتب الأدب بعض ما كان يدور بينهما من محاورات في الشعر والشعراء (٤) . ويصبح من ندماء ابن عمه ورفقائه على الشراب والسماع إلى الغناء ، وتتمبل الدنيا عليه ، وتنعقد صداقة بينه وبين عبيد الله بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد القديم وصديق أبيه ، ويهنته باختيار ابنه محمد لشرطة بغداد قائلاً (٥) :

فرحتُ بما أضعافه دون قدركم وقلت عسى قد هبَّ من نومه الدهرُ
فترجعَ فينا دولةٌ طاهرةٌ كما بدأتُ والأمر من بعده الأمرُ

وتتوثق صداقة ثانية بينه وبين عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد، ويبدو أنها صداقة قديمة منذ وزر عبيد الله للمعتمد ، وهو يكثر من ملحه وشكره

(١) زهر الآداب للحصري ١٩٣/٣
وفي أشعار أولاد الخلفاء ص ١٣١ أنها في المعتضد .
(٢) البيض : السيوف - محول : مجدية .
(٣) الديوان ص ٣٠٧ وأشعار أولاد الخلفاء ص ١٢٨ .
(٤) أخبار البحري للصول ص ١٦٤ .
(٥) أغاني ١٠/٢٨٦

على ما يصله به من أعطيات الدولة ، وتنشأ بينه وبين ابنه القاسم الذى وزر بعده صداقة ثالثة ومودة أكيدة ، وفى ذلك يقول منوهاً بتلك الأسرة^(١) :

لآل سليمان بن وهبٍ صنائعٌ إلىٍّ ومُعرفٍ لدىٍّ مُقدِّمًا
هُمُ علِّموا الأيامَ كيفَ تبرُّى وهم غسَلوا عن ثوبِ والدىِّ الدِّمَا

ويتوفى المعتضد سنة ٢٨٩ ، وكان ابنه المكتنى غائباً ، ويضطر رئيس الحرس مؤنس إلى حبس جماعة من وجوه العباسيين حتى تؤخذ البيعة للمكتنى ، وتمضى بسلام ، ويسسلك فيهم ابن المعتز ، ونراه يجأر إلى القاسم بالشكوى من هذا الحبس الاضطرارى وسرعان ما يتردُّ إليه القاسم حريته ، كما يرد إليه أعطياته ويوالى له العطاء ، فيكثر ابن المعتز من مدحه ، معترفاً له بصنيعه من مثل قوله^(٢) :

أصلحَ بنى وبين دهرى وقام بنى وبين حَفِىِّ

ولا يلبث القاسم أن يلي نداء ربه لسنة ٢٩١ ويظل المكتنى يفسح لابن المعتز فى مجالسه ، وابن المعتز يكثر من مدائحه ، وينوه بانتصارات جيوشه على قرامطة الشام وزعيمهم الحسين بن زكروية القرمطى المعروف بصاحب الشامة ، وينادمه ويحضر مجالس سماعه وشرابه .

ويتوفى المكتنى لسنة ٢٩٥ للهجرة ويتولى الخلافة من بعده ابنه المقندر وسنه لا تتجاوز الثالثة عشرة ، فيكثر اللغظ حوله ويتكلم الناس فى شأنه ويقولون كيف يتولى الخلافة من لم يبلغ الحلم ، كما يقول كثيرون ينبغى خلعه . وتدخل سنة ٢٩٦ وما يوافق شهر ربيع الأول حتى يزداد اللغظ والكلام لاستيلاء أمه شغب وقهرمانتها على الحكم كما مر بنا فى غير هذا الموضوع ولقصوره الواضح عن تدبيره شئون الخلافة . وفى يوم السبت لإحدى عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول اجتمعت جماعة كبيرة من القواد والقضاة وانفقت على خلع المقندر وتولية عبد الله بن المعتز وبايعته فى اليوم التالى^(٣) ، وكان الرأس المدبر لذلك محمد بن داود بن الجراح الكاتب ،

(١) مروج الذهب ص ٢٠٤ .

(٢) الديوان ص ٣١٩ .

(٣) انظر فى بيعة ابن المعتز ومقتله

الطبرى ١٠ / ١٤٠ والنجوم الزاهرة ٣ / ١٦٤

وذيل زهر الآداب ص ٢٠٤ .

وقلده ابن المعتز الوزارة وتكلم في المقتدر قائلا: إنه لم يبلغ الحلم وإنه لا تنصح للناس صلاة معه ولا حجاج ولا غزو وقد آن للحق أن يتضح وللباطل أن يفتضح . ولم يكدمر يوم على هذه البيعة حتى هب مؤنس الخادم في جند كثيرين فنقضها وجدد للناس بيعة المقتدر وأخرج لهم الأموال وزاد في الأعطية . ولم يبق مع ابن المعتز أحد فهرب إلى دار ابن الحصاص تاجر الجواهر المشهور وقبض عليه مؤنس وقتله ، وبذلك لم تتم له الخلافة إلا لمدة يوم وليلة ، وقيل بل لمدة نصف نهار فحسب . وما كان أحرأه أن يتبعده عنها ، متعظاً بما أصاب أباه منها ، ولكن النفس أمارة بالسوء .

ولعل فيما سبق ما يوضح العناصر التي كونت شخصية ابن المعتز الأدبية ، فهو عربي عباسي يعتز بعروبته وأسرته ، وُلد في القصر العباسي وفي كل ما انبث فيه من لسهو وطرب ، على نحو ما هو معروف عن آبائه : الرشيد والمتوكل والمعتز ، إذ كانوا يفرغون للهوهم ومتاعهم كلما أتيج لهم الفراغ ، وقد يكون في ذلك بعض البواعث عنده على الإحساس المادى للأشياء ، أو قل على وصفها وصفاً مادياً ، إذ كان هذا الوصف هو الذي يلائم مزاجه المترف ، كما كان يلائم عقله الذي يعيش في النعيم فلا يستطيع أن يتعمق الأشياء ، وإنما يقف عند ظاهرها الحسى المكشوف ، وقد يما أشار ابن الرومي إلى تأثير بيئته المترفة في شعره ، وإن كانت إشارته من طرف آخر ولكنه يلتقي بما قدمنا ، فقد سأله شخص : لِمَ لا تشبه تشبيه ابن المعتز وأنت أشعر منه ؟ فقال له : أنشدني شيئاً من شعره أعجز عن مثله ، فأنشده وصف ابن المعتز للهلال :

انظُرْ إليه كزورقٍ من فضةٍ قد أثقلته حمولةٌ من عنبرٍ

فقال ابن الرومي له : زدني ، فأنشده :

كأن آذريونها والشمس فيه كاليه (١)

مدهنٌ من ذهبٍ فيها بقايا غالية (٢)

وصاح ابن الرومي : واغوثاه ! لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، ذلك إنما

(١) الآذريون : زهر أصفر في وسطه
حمل أسود .

(٢) الغالية : المسك ، وهو أسود .

يصف ماعون بيته ، لأنه ابن الخلفاء وأنا مشغول بالتصرف في الشعر وطلب الرزق به ، أمدح هذا مرةً وأهجو هذا كرامةً . وأعاتب هذا تارةً وأستعطف هذا طوراً^(١) . وابن الرومي يلاحظ التأثير المادي المترف للبيئة على ابن المعتز . وعنصر آخر اشترك في تكوين شخصيته الأدبية بقوة ، وهو عنصر ثقافته العربية الإسلامية ، وقد جعله ذلك أقرب إلى ذوق المحافظين منه إلى ذوق المجددين ، حتى إذا انقسمت بيئات النقاد في عصره إلى مجددين مسرفين في التأثر بمقاييس البلاغة اليونانية وتحكيمها في الشعر العربي من جماعة المترجمين ومن التف حولهم ، ومحافظين مسرفين في رفض هذه المقاييس والتأثر بالمقاييس العربية الخالصة من جماعة اللغويين أمثال ثعلب والمبرد والبحرّى من الشعراء ، ومعتدلين يتأثرون الضريين من المقاييس دون إفناء الشخصية الأدبية العربية في المقاييس الأجنبية من أمثال أبي تمام وابن الرومي وجدناه يأخذ صف المحافظين لتعمق إحساسه بعروبه وتغلغل الثقافة العربية الإسلامية في نفسه ، ويصرّح بذلك في كتابه البديع الذي أنشأه ليثبت أن كل ما استحدثه العباسيون المستظهرون للثقافة اليونانية الفلسفية ليس محدثاً في حقيقته ، بل هو يستمد من أصول قديمة في الشعر الجاهلي والإسلامي والقرآن الكريم والحديث النبوي .

وخصّصاً أبا تمام برسالة احتفظ بها في ترجمته كتاب الموشح للمرزباني ، وهي تحمل كل الأسس التي كوّن منها الآمدي حملته على أبي تمام . ومعنى ذلك أنه على الرغم من ذوقه المرفه وحسه الرقيق كان ينحون نحو المحافظين في فهم الشعر ونقده ونظمه . وكتابه « طبقات الشعراء المحدثين » ، يدل على ثقافة واسعة بالشعر العباسي ولكنه استعان بتلك الثقافة نفسها على تأكيد الاتجاه المحافظ عنده ؛ إذ سخرها كما يتضح في كتابه « البديع » لإثبات أن العباسيين لم يأتوا بشيء ذي بال ، وأن كنوز الشعر العربي القديم لا تزال مفتوحة على مصاريحها ليشتق منها العباسيون كل بارع طريف .

ولا بد أن نلاحظ بجانب ذلك مؤثراً نفسياً أثر فيه وفي شخصيته وشعره آثاراً عميقة ، ونقصه به مقتل أبيه وجده من قبله ، مما آذى نفسه إيذاء شديداً ، إذ نشأ لا يعرف الأمن ولا اطمئنان القلب ، وظل يرافقه هذا الإحساس طوال حياته ،

لإذ يجلل شعره بأس عميق، وحقاً كان يُكسب كثيراً على اللهو يُغرق فيه أحزانه ، ولكنها كانت أعظم من أن تغرق أو تنمحي من نفسه ، ولعل ذلك ما جعله يكثر من الفخر بشجاعته ، وهو يخاف الترك وغير الترك ويتملق عموته وأبناءهم خوفاً على حياته وإيثاراً لعافيته .

وتلك هي مكونات شخصيته ، بيئة مترفة ينغمس من فيها في ضروب عدة من اللهو والمتاع بالحياة ، وثقافة عربية إسلامية محافظة ، وأحداث خطيرة جعلت الشر يلم به مبكراً ، وتدلهم من حواله الخطوب ، فيفكر في الحياة والموت وما في الدنيا من بؤس وآلام ، وكأما كتب عليه ألا يشرب كنوس الترف واللهو صافية ، فداًئماً أو قل كثيراً ما تمتزج بها صور من الضيق بالحياة وما فيها من شر ونكسر وما ينتظر الإنسان من مصيره المحتوم ، وابن المعتز مع ذلك كله غزّل ظريف حلو الدعابة جميل الحضر يألفه كثير من الأدباء .

ويبدو أن أكبر شاعر محدث كان يعجب به هو البحرى ، فقد روى عنه أنه قال : كان مما حبب الشعر إلى أنى سمعت البحرى يُنشد الماضي (يريد أباه المعتز) شعراً تشوقه الناس واستحسنوه ووصفوه ، تصرف فيه بغزل ووصف ومدح وشكر ، وعدد أصناف ما أخذ ، وطلب خاتم ياقوت ، وهو عندي من أحسن شعره ، وهو :

بودى لو يهوى العذول ويعشق فيعلم أسباب الهوى كيف تعلق^(١)

والبحرى يستهل القصيدة بغزل مليء بالشوق إلى علوة صاحبتة الحلبية ، ويصف طيفها الذى ألم به فى حلمه ولطفته على لقائهما ، وعناقها وصابته بها ودموعهما وقبلاتهما والتصاق خددوهما حين يلتقيان ، حتى ليقول :

فلو فهم الناس التلاقى وحسنه لحبب من أجل التلاقى التفرق

ويُفيض فى مديح المعتز وما أضنى عليه من عطايا ، ويستوهبه فى رقة ولطف خاتماً . ويلفتنا إعجاب ابن المعتز بهذه القصيدة التى أنشدها البحرى أباه وسنه

لا تتجاوز التاسعة ، وتدوقه لها في هذه السن الباكرة يدل ذلك على أنه كان قد حفظ كثيراً من الشعر ، حتى تكوّن له ذوق يستطيع به أن يفقه ما في الشعر من جمال .
ومرّ بنا وصف البحري له في حياة أبيه بأنه يستولى على حلبة الشعر مما يدل على أن الشعر سال على لسانه وهو بعد في الثامنة أو التاسعة من حياته .

ولم يكن البحري وحده أستاذه في مطالع حياته ، فأهم منه أبوه المعتر إذ كان شاعراً بارعاً ، ولو قدّر له أن تمتد حياته لشغل النقاد بأشعاره على نحو ما شغلهم ابنه ، وكان ينفق كثيراً من أوقاته في اللهو والمجون والصيد ، وينظم في ذلك كله أشعاره ويطلب إلى هذا المغنى أو ذاك أن يتغنى فيما ينظم ، وكل ذلك ورثه ابن المعتر عن أبيه . وبذلك كان له في أوائل حياته أستاذان : أستاذ من بيته هو أبوه الذى كان يدرّبه على نظم الشعر ، وأستاذ من غير بيته هو البحري .

ومن المحقق أن نسيج صياغته لا يرتفع في متانته وجزائته إلى مرتبة صياغة البحري ، حقاً كثيراً ما يرتفع ، ولكنه قد يهبط درجات عن صياغته الجزلة الرصينة ، مما جعل كثيرين في عصره وبعده عصره يحملون عليه ، وتصدى لهم أبو الفرج ملوحاً في وجوههم بقوله : « شعره إن كان فيه رقة الملوكية وغزل الظرفاء وهلهلة المحدثين فإن فيه أشياء كثيرة تجرى في أسلوب المجيدين ولا تقصر عن مدى السابقين وأشياء ظريفة من أشعار الملوك في جنس ما هم بسبيله ليس عليه أن يتشبه فيها بفحول الجاهلية ، فليس يمكن واصفاً لصبروح في مجلس شكيل ظريف بين نداهى وقيان على ميادين من النور والبسفسج والنرجس ومنضود من أمثال ذلك . . . أن يعدل عما يشبهه من الكلام السبّط (السهل) الرقيق الذى يفهمه كل من حضر إلى جعد الكلام ووحشيته وإلى وصف البيد والمهامه والظببى والظلم والناقاة والحمل والديار والقفار والمنازل الخالية المهجورة ، ولا إذا عدل عن ذلك وأحسن قيل له مسيء ، ولا أن يغمط حقه كله إذا أحسن الكثير وتوسّط في البعض وقصر في اليسير وينسب إلى التقصير في الجميع لنشر المقابح وطمى المحاسن . فلو شاء أن يفعل هذا كل أحد بمن تقدّم لوجد مساعاً^(١) . وأبو الفرج بذلك أنصف ابن المعتر ، ووضعه في مكانه الصحيح ، فهو في أكثر شعره محسن ، وهو في بعضه متوسط الإجابة ، وفي اليسير

منه مقصّر، وأكبر الظن أن هذا اليسير من شعر الارتجال إنما كان في أثناء سمره أو في أثناء سماعه للغناء وشربه. على أنه لا بد أن نشير إلى مهارته في الغناء والموسيقى وأن هذه المهارة جعلته من أصحاب الأذان الدقيقة التي تزن جرس الكلام، ولذلك كنا نحس عنده دائماً بأنه لا يهمل الأسماع في شعره، إذ كان يحاول أن يلذّها بأنغامه وألحانه. وظاهرة ثانية في أشعاره هي عنايته فيها بالتشبيهات والاستعارات والجناس والطباق وهي ظاهرة طبيعية، إذ كتب في هذه الفنون كتابه «البديع» ونوّه بها، غير أنه لم يفرط في الجناس والطباق إفراطاً بعيداً، وقد عاب أباتام بذلك في كتابه، لأنه يخرج فيه على طريقة القدماء. والمحافظون من أمثاله وأمثال البحترى كانوا يوازنون بين البديع المستحدث وصوره عند القدماء، فلم يكونوا يُسرفون فيه مثل أبي تمام ومسلم ابن الوليد.

ولعل من الواجب أن نستعرض فنون الشعر عنده، لتتضح لنا شاعريته، وأول ما نقف عنده من تلك الفنون المديح، ومرّ بنا أنه مدح من الخلفاء المعتمد والمعتضد كما مدح عمه الموفق البطل المظفر، ونحس ببهجة حقيقية وشاعر صادق في مديحه لابن عمه المعتضد، أما مديحه في غيره ففاتر، وكان المعتضد كما أسلفنا بطلا مغواراً واستطاع — كما استطاع أبوه الموفق — أن يخضد شوكة الترك، بل أن يقلم أظفارهم، وكأنما كان يشفي غليل ابن المعتز وضعفنه القديم عليهم، إذ هم قتلة أبيه وسافكو دمه، وليس ذلك فحسب هو الذي جعل المعتضد يقرب من نفسه، فقد اتخذه نديماً وجليساً وتوالت عطاياها عليه، فكان إذا مدحه انبعث في مديحه عن عاطفة صادقة حارة، وربما كانت خير مدائح في رأيته التي يستهلها بقوله^(١):

سلمت — أمير المؤمنين — على الدهر ولا زلت فينا باقياً واسع العمر
حللت الثرياً خير دارٍ ومنزلٍ فلا زال معموراً وبورك من قصرٍ
فليس له فيما بنتى الناسُ مشبهٌ ولا ما بناه الجنُّ في سالف الدهرِ
والثريا مجذوعة من الدور والقصور بناها المعتضد، ويقال — كما مر بنا في غير

هذا الموضع — إنه أنفق عليها أربعمائة ألف دينار وإنها كانت تمتد نحو ثلاثة فراسخ ، ومن حولها البساتين والرياض ، وقد صورها ابن المعتز تصويراً رائعاً ، إذ يقول في نفس القصيدة :

وَأَنْهَارُ مَاءٍ كَالسَّلَاسِلِ فُجِّرَتْ لَتُرْضِعَ أَوْلَادَ الرِّيحِ وَالزَّهْرِ
جِنَانٌ وَأَشْجَارٌ تَلَاقَتْ غَضُونَهَا فَأَوْزَقْنَ بِالْأَمْثَارِ وَالْوَرَقِ الْخَضِيرِ
تَرَى الطَّيْرَ فِي أَغْصَانِهِمْ هَوَاتِفًا تَنْقُلُ مِنْ وَكْرٍ لَهَا إِلَى وَكْرٍ

ويتحدث عن بأس المعتضد وجراءته وأنه يفوق فيهما ليث الغاب الذي يجرُّ إلى أشباله كل ليلة ذبيحة وحش أو ذبيحة من البشر ، والذي ما يزال يُفزع الناس بزئيره وبمن يفترس منهم ويتضممه قضمًا . وكان المعتضد حقًا شجاعًا شجاعة خارقة ، ويصور ابن المعتز ما بسط في البلاد من عدل ومن رفق بالعباد وجبروت شديد بمثل قوله في القصيدة :

حَكَمْتَ بَعْدَلٍ لَمْ يَرَ النَّاسُ مِثْلَهُ وَدَاوَيْتَ بِالرَّفْقِ الْجُمُوحَ وَبِالْقَهْرِ

وليس في أشعاره مديح أو تهنئات لولاة أو وزراء سوى عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وعبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد وابنه القاسم كما أسلفنا ، وخير مدائحه فيهم جميعًا ما مدح به عبيد الله بن سليمان بن وهب ، وهو على كل حال لا يبالغ في إطرائه له على عادة الشعراء المتكسبين بأشعارهم ، إنما هي أبيات ينفث بها صدره من مثل قوله^(١) :

أَيَا مَوْصِلَ التُّعْمَى عَلَى كُلِّ حَالَةٍ إِلَى قَرِيبًا كُنْتَ أَوْ نَازِحَ الدَّارِ
كَمَا يَلْحَقُ الْغَيْثُ الْبِلَادَ بِسَيْلِهِ وَإِنْ جَادَ فِي أَرْضٍ سِوَاهَا بِأَمْطَارِ
لَقَدْ عَمَرَ اللَّهُ الْوَزَارَةَ بِاسْمِهِ وَرَدَّ إِلَيْهَا أَهْلَهَا بَعْدَ إِقْفَارِ
وَكَانَتْ زَمَانًا لَا يَقِرُّ قَرَارُهَا فَلَاقَتْ نَصَابًا ثَابِتًا غَيْرَ خَوَارِ

وفى ديوانه وبين أشعاره مرث قليلة وأهمها ما نظمه في ممدوحيه السالفين وخاصة المعتضد صديقه فقد حزن عليه حزناً شديداً ، إذ أحس كأنما انهار ركن العباسيين الوطيد وانقض من أساسه ، كما أحس أن أيام أنسه عادت ظلاماً ، فقد طوت المنية صديقه الحميم ، وطار قلبه فزعاً ، واسودت الدنيا من حوله ، وقد مضى يرثيه ويتفجع عليه وعلى دولته وما بذله في حمايتها ووقايتها من جهد جهيد وبأس له شديد ، يقول والدموع تنهمر من عينيه وتكاد تخنقه خنقاً^(١) :

يا ساكنَ القبر في غبراءٍ مظلمةٍ بالطاهريةِ مُقَصَى الدَّارِ منفرداً^(٢)
 أين الجيوش التي قد كنت تَسْحَبُهَا أين الكنوز التي لم تُحْصِهَا عَدَدًا
 أين السرير الذي قد كنت تملؤه مهابةً ، مَنْ رَأَتْهُ عَيْنُهُ ارْتَعَدَا
 أين الرِّمَاح التي غَدَّيْتَهَا مُهْجًا مُدْمِتٌ ما وردت قلباً ولا كبدا
 ويتحسر على قصره الثريا ووصائفه وملاهيته ، وكأنما أصبح ظللاً مهجوراً ، ولا أثر ولا عين ، كأنما لم يكن به المعتضد يوماً . ويحزن حين توفى قبله وزيره عبيد الله ابن سليمان بن وهب ، ولكنه لا ينظم فيه قصائد إنما ينظم أبياتاً قليلة يبكي فيها قدرته الكتابية أو قدرته السياسية في الحكم والتدبير من مثل قوله^(٣) :

هذا أبو القاسم في نَعْشِهِ قوموا انظروا كيف تسير الجبال
 يا ناصر الملك بأرائِهِ بعدك للملك ليالٍ طَوَالَ
 وطبيعي ألا نجد عند ابن المعتز هجاء ، فقد كان يرتفع بنفسه عن هذا الفن الذي يستحيل في أيدي الشعراء سهاماً يسددونها إلى خصومهم ، ولم يكن له خصوم ، ولا كان يكن لأحد خصومة إلا ما قد يقواه تندراً ودعابة من مثل قوله لعلى بن بسام هجاء عصره^(٤) :

يا قَدَى في العيون يا حرقَةً بي نَ التراقي حَزازَةً في الفؤادِ
 يا طلوع العذول ما بين إلفٍ يا غريماً وافي على ميعادِ

(١) الديوان ص ٣٨٩ .

(٢) ذيل زهر الآداب ص ١٨١ .

(٣) النجوم الزاهرة ٣ / ١٢٧ .

(٤) الطاهرية : الدار التي دفن بها المعتضد غربي بغداد .

يا ركوداً في يوم غيمٍ وصيفٍ يا وجوه التجار يوم الكسادِ
خلّ عنا فإنما أنتُ فينا واو عمرو أو كالحديث المعادِ

ويُكثر ابن المعتز في شعره من الفخر بجوده وشجاعته ومضائه في الحروب
وفروسيته ، وهو يحاكي في ذلك القدماء في حماستهم ، فهو فخر مصطنع متكلف
في جمهوره ، ويفخر طويلاً بأسرته وبجده العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم
وبلائه في موقعة حنين ، وبشجاعة آبائه وعمومه وبلاغتهم ، وفي ذلك يقول (١) :

إننا لنتتاب العداة وإن نأوا ونهزُّ أحشاء البلاد جموعاً
ونقول فوق أسرةٍ ومنايرٍ عجباً من القول المصيب بديعاً
قومٌ إذا غضبوا على أعدائهم جروا الحديد أزرجةً ودروعا
وكانَ أيدينا تنفّر عنهم طيراً على الأبدان كنّ وقوعاً

والصورة الأخيرة بديعة ، فهو يتصور رموس الأعداء كأنها طير يتطاير بالسيف
مزايلاً لمكانه من أبدانهن . ويمتزج الفخر عنده بشكوى كثيرة ، وهي شكوى مردّها
إلى ما كان يتعمق نفسه من حزن وألم منذ ألت به محنته في مقتل أبيه ، على نحو ما مرّ
بنا آنفاً ، فقد خلّفت هذه المحنة في نفسه ضيقاً شديداً ولعل ذلك ما جعله يشكو
من إخوانه أحياناً .

وكان كثيراً ما يوجه فخره بأسرته إلى العلويين ، مبيّناً أن بيته أحق بالخلافة
من بيتهم ، وقد ظلت ثوراتهم مشتتة لا تخمد طوال عصره ، مما جعله يكثر من
وعيدهم وتهديدهم ، مذكراً لهم بأن بيته هو الذي استطاع أن يثار لهم من
الأمويين قتلة الحسين وزيد حفيده (٢) ، ويحاول في مقطوعات وقصائد مختلفة أن
يستلّ البغض والإحسان من نفوسهم على شاكلة قوله (٣) :

بني عمنا عودوا . نعدُّ لمودةٍ فإننا إلى الحسنى سراعُ التعطفِ
لقد بلغ الشيطان من آل هاشمٍ مبالغه من قبلُ في آل يوسف

(٢) الديوان ص ٥٠ .
(٣) الديوان ص ٣٢٧ .

(١) الديوان ص ٣٠٠ وأشعار أولاد
الخلفاء ص ١٦٥ .

فهم في رأيه بيت واحد وإخوة وينبغي أن يتحابوا لأن يتباغضوا ويتقاطعوا كما حدث بين إخوة يوسف عليه السلام وبينه ، حتى باعوه لسيارة بثمن بسخس دراهم معدودة . ويبدو أن بعض معاصريه لامة على ما يوجه للعلويين من لوم وأشاعوا أنه يسب على بن أبي طالب ، فنظم قصيدة طويلة في مديحه والثناء عليه ، يقول في مطالعها^(١) :

أَأَكَلْ لَحْمِي وَأَحْسُو دَمِي فَيَا قَوْمَ لِلْعَجَبِ الْأَعْجَبُ^(٢)
عَلِيٌّ يَظُنُّونَ بِي بُغْضُهُ فَهَلَّا سِوَى الْكُفْرِ ظَنُّهُ بِي

ومضى يقول إن الذي يُشيع ذلك هم القرامطة الذين حادوا عن جادة الدين باسم التشيع لعل وهو منهم برىء وفضله لا ينكره أحد ، وأخذ يصور بسالته وبلاغته وأخوته للرسول عليه السلام ونفوذ بصيرته في الحكم والقضاء وزواجه من السيدة فاطمة بنت الرسول ، وسَمَّاهُ بحر العلوم ، وذكر مواقف العظيمة ، وأشاد بالحسن والحسين وما كان من مقتل الأخير بيد الأمويين الغاشمة ، وبكاء العباسيين عليه وأخذهم لثأره . ولا بد أن تفصل بين شعر ابن المعتز الموجّه إلى العلويين ، والآخر الموجه إلى القرامطة والروافض ، فهو في الأول يغلب عليه الاعتدال والميل إلى الإنصاف أما في الثاني فيملؤه بإنذارات وتهديدات شديدة ، مع ما يسمهم به من الإلحاد والكفر والزندقة .

وتلقانا في ديوانه مقطوعات غزلية كثيرة ، ولكنها لا تنبئ عن حب حقيقي كان يكتبه ، بناره ، فهي مقطوعات وقد تكون استهلاكات لقصائد ، لا تصدر عن وجد شديد ، وإنما تصدر غالباً عن ود ، وكأن مثله من أبناء القصور لا يستطيع الحب أن يتعمقه ، ولذلك كنا ن فقد عنده الإلحاح في الطلب والأمل والشوق المبرح والتضرع الحار ، وكل ما نجد إنما هو حب الشباب المترف الذي لا ينبع من أعماق النفس والقلب ، أو قل هي أبيات ينظمها فيمن كن يغشين مجالسه من الجوارى أمثال نشر وشيرة على سبيل الدعابة من مثل قوله^(٣) :

(٢) الديوان ص ٥٢ وأشعاره أولاد الخلفاء

ص ٢٢١ والأغاني ١٠ - ٢٧٨ .

(١) الديوان ص ٦٧ .

(٢) أحسو: أشرب .

وابلأى من محضر ومغيبٍ وحبيب منى بعيد قريب
 لم تَرِدْ ماءً وَجْهَ العينِ إلا شَرِقتَ قبل رِيِّها برقيبٍ
 وقوله (١):

زاحم كُمى كُمى فالتَويا وافق قلبى قلبه فاستويا
 وطالما ذاقا الهوى فاكتويا يا قُرَّةَ العين وياهمى ويا

وهى أبيات لا تصور عذاباً فى الحب ولا ألماً من ناره المحرقة، إنما هى أقرب ما تكون إلى الدعابة، وختم البيت الرابع بقوله: «ويا» كما يقول الناس: يا أختى ويا ويا مستغنين بذلك عن الشرح. وقد تحولت هذه الصورة من التعبير فيما بعد إلى لون من ألوان البديع سمَّاه المتأخرون باسم الاكتفاء. وقرأ فى ابن المعتز فإنك لن تقف على حب لاهب، إنما تقف على دعابات وصور وفنٍّ من مثل قوله (٢):

تقول العاذلات تعزُّ عنها واطفٍ لهيبَ قلبك بالسُّلو
 وكيف وقُبلةٌ منها اختلاسا ألدُّ من الشماتة بالعدو
 وقوله (٣):

إذا اجتنى ورْدَةٌ من خدِّها فمهُ تكوَّنت تحتها أخرى من الخَجَلِ
 وكان - كما أسلفنا - يُسْنَق على شاكلة أبناء القصور - كثيراً من أوقاته فى اللهو والحمر، وديوانه طافح بكنوسها ودنانها وسُقَّاتها وأديرتها، فهو لا يشربها فى بيته ومجالسه مع أصدقائه فحسب، بل يشربها أيضاً فى أمكنتها المعروفة لعصره وخاصة الأديرة مثل دير عبدون، وهو يصرِّح بأنه كان يغرق فيها همومه إذ يقول (٤):

وليس للهَّمٌ إلا شُرْبُ صافيةٍ كأنها دَمعةٌ من عين مهجور

(٢) مروج الذهب ٤ / ٢٠٥.

(٤) الديوان ص ٢٣٠.

(١) الأغاني ١٠ / ٢٧٩.

(٢) مروج الذهب ٤ / ٢٠٣.

فهو يقبل عليها لتنسيه همومه ، ولتمسح على كدر حياته بنصاعتها وصفائها ،
وليتسلى ويتعزى عن مقتل أبيه الذى لم ينسه يوماً ، ومثله فى الخمر مثله فى الحب ،
فهو لا يتعبدها كما كان يتعبده أبو نواس ولا يسبح بالآلها مقدماً إليها
قربينه من الشعر ، إنما هو يتسلى بها ويتسلى بما ينظمه فيها بمثل قوله فى مديح
الصبوح (١) :

أَسْقِنِي الرَّاحَ فِي شَبَابِ النَّهَارِ وَأَنْفِ هَمِّي بِالْخَنْدَرِيسِ الْعُقَارِ (٢)
قَدْ تَوَلَّتْ زُهُرُ النُّجُومِ وَقَدْ بَشَتْ رَ بِالصُّبْحِ طَائِرُ الْأَسْحَارِ
مَا تَرَى نِعْمَةَ السَّمَاءِ عَلَى الْأَرْضِ ضِ وَشَكَرَ الرِّيَاضِ لِلْأَمْطَارِ
وَعِنَاءِ الطُّيُورِ كُلِّ صَبَاحٍ وَأَنْفَتَاقِ الْأَشْجَارِ بِالْأَنْوَارِ
فَكَأَنَّ الرَّبِيعَ يَجْلُو عَرُوسًا وَكَأَنَّ مِنْ قَطْرِهِ فِي نِشَارِ (٣)

وهى أبيات تصور إحساسه بما ينعكس على بصره من جمال الطبيعة صباحاً فى
الربيع ، ولكنها لا تصور حبياً ولا تهالكاً على الخمر ، ولا عاطفة جامحة أو متقدة ،
إنها ليست أكثر من أبيات يتسلى بها ويتعزى ويظهر مقدرته على النظم فى الخمر ،
وإن ذلك يكون من السهل عليه أن ينقض هذا المدح للصبوح ويضع قصيدة بل قل
مزوجة (٤) فى ذمه امتدت إلى نحو مائة وعشرين بيتاً وفيها يقول :

فَأَيُّ فَضْلٍ لِلصُّبُوحِ يُعْرَفُ عَلَى الْغُبُوقِ وَالظَّلَامِ مُسْدِفٌ (٥)

ويطيل فى الأسباب التى من أجلها ينمه ذمماً قبيحاً ، كأن يعرض المصطبحين
للبرد القارص شتاء والحر اللافح صيفاً . وقد يكون مصدر هذا الدم شيوع المناظرات
لعصره وبيان محاسن الشئء ومساوئه ، كما مر بنا عند ابن الرومى فى ذمه للورد ، ولكن
من المؤكد أن ابن المعتز لم يصور فى ذلك عاطفة ، وإنما صور عبثاً عقلياً ، وقد

(١) الديوان ص ٢٣٢ وأشعار أولاد الخلفاء .

الدرهم الفضية .

(٤) الديوان ص ٤٧٣ وأشعار أولاد الخلفاء

ص ١٩٠ .

(٢) الخندريس المقار : الخمر .

ص ٢٥١ .

(٥) مسدف : مرضى السطور .

(٣) النشار : ما يثر على العروس من

يكون أهم من هذا العبث وصفه للبستان في مزدوجة مشهورة له ، إذ يقول :

وياسمينٌ في ذُرَى الأَغْصَانِ منتظمٌ كقطعِ العِقيَانِ
والسُرُوِّ مثلِ قصبِ الزبرجدِ قد استمدَّ العيشَ من تُربِ نَدَى
على رياضِ وثرى وثرى وِجْدُولٍ كالْمِبْرَدِ العَجَلِيِّ
وجُلنارٌ كاحمرارِ الخدِّ أو مثلِ أعرافِ ديوكِ الهِنْدِ

ويستمر في رصف مثل هذه التشبيهات والصور ، وكانت لديه مهارة خارقة في اجتلابها ، والملازمة بينها وبين ماعون بيته كما لاحظ ذلك ابن الرومي آنفًا . وقد لا يستمدّها من ماعون بيته ، ولكن نحس كأنما عقله كان أكثرًا زاحراً بالتشبيهات والصور . وأكثر من تصوير أضواء الصباح وهي تحسر عن الأفق خيوط الظلام وسواده ، فتارة يشبه الظلام بحبشي أسود والصباح يفتر عن أسنانه ضاحكًا من فراره ، أو يشبهه بغراب قوادهم بيضاء أو مقصوص الجناح ، أو بأسود عريان يمشي في الدجى بسراج ، وقد يشبه الهلال بزورق من فضة مملوء بالعنبر ، ومن بديع تشبيهاته له تصويره بقوله (١) :

كمنجَلٍ قد صيغَ من فضةٍ يحضدُ من زهر الدجى نرجسًا

وتكثر في الديوان مثل هذه التشبيهات البارعة لعناصر الطبيعة ، ولم يقف عند الطبيعة المتحضرة وحدها فقد كان يلم بالطبيعة الصحراوية . ولعل أبا الفرج الأصبهاني لم يرد في دفاعه عنه الذي مرّ بنا أن ينكر عليه أنه نظم بعض شعره في الأطلال والبيد وحيواناتها ، إنما أراد الإكثار من النظم في الصحراء إذ له أشعار مختلفة في وصفها ، وقد مرت بنا في غير هذا الموضع أبيات طريفة له في وصف الأطلال والديار الحالية ، وأخرى في وصف ثور الوحش وبقره ، ومن طريف ماله في وصف الإبل قليلة اللبن وهي تحلبُ قوله (٢) :

رأيت انهمار الدرِّ بين فروعها كما عصرت أيدي الغواسل أثوابا

وقوله في أخرى وسُراه عليها طوال الليل ، كأنها هائمة تطلب شيئاً ضالاً منها^(١) :

فكَانَ أَيْدِيَهُنَّ دَائِبَةً يَفْحَصْنَ لَيْلَتَهُنَّ عَنْ صُبْحِ

وله في الخليل أشعار مختلفة ، وطبيعي أن يُعَسِّنِي بها ، إذ كان شغوفاً بالصيد ، حتى ليحتل الطَّرْدُ جزءاً كبيراً من ديوانه وأشعاره ، ومن طريف ما نعت به قولها في مقدمة إحدى طردياته يصف فرساً له^(٢) :

قَدْ أَغْتَدَى وَالصَّبْحِ كَالْمَشِيبِ فِي أَفْقٍ مِثْلَ مَدَاكِ الطَّيْبِ^(٣)

بِقَارِحِ مَسُومٍ يَعْجُوبُ ذِي أُذُنٍ كَحَوْصَةِ الْعَسِيبِ^(٤)

أَوْ آسَةَ أَوْفَتْ عَلَى قَضِيبِ يَسْبِقُ شَأْوُ النَّظْرِ الرَّحِيبِ^(٥)

أَسْرُعُ مِنْ مَاءٍ إِلَى تَصْوِيبِ وَمِنْ رَجُوعِ لِحَظَةِ الْمَرِيبِ

وينتقل من وصف الفرس إلى وصف الصقر أذاته في تلك الرحلة للصيد ، ويصف مهارته في تعقب طرائده من الطير وانقضاضه عليها بمنسره ومخالبه ، يخزها ويطعننها مسيلاً لدمائها مزهقاً لأرواحها ، يقول :

وَأَجْدِلِ أَحْكَمِ بِالتَّأْدِيبِ سَوِّطِ عَذَابِ وَقَعِ مَجْلُوبِ^(٦)

يَهْوَى هُوِيَّ الْمَاءِ فِي الْقَلْبِيبِ مَا طَارَ إِلَّا لِدَمٍ مَصْبُوبِ^(٧)

وعلى نحو ما يصور الصقور الجارحة في طرده وصيدها للطير يصور البزاة بأبصارها الثاقبة ومناسرها الحادة المرهفة كالأسنة المُشْرَعَةِ ، ومن طريف ماله في تصوير عين باز قوله^(٨) :

ومقلة تصدقه إذا رمق كأنها نرجسة بلا ورق

(٥) أوفت : أشرفت .

(٦) أجدل : صقر .

(٧) القلبيب : البئر .

(٨) أشعار أولاد الخلفاء ص ٢١٨ وديوان

المعاني ٢ / ١٤٠ .

(١) الديوان ص ١٤٠ .

(٢) الديوان ص ٨٦ وزهر الآداب ٢ / ٢٣

وأشعار أولاد الخلفاء ٢٠٩ .

(٣) المداك : الحجر الذي يسحق عليه الطيب .

(٤) قارح : مكتمل الخلق . مسوم : معلم

حسن الخلق . يعجوب . سريع الجرى .

وله في الكلاب طرديات كثيرة يأتي فيها بأبي نواس ، بل هو في طردياته جميعاً يأتي به ويحاكيه حتى في ألفاظه التي يفتح بها تلك الطرديات ، من مثل : قد أعتدى . وقد مضى في إثره يتحدث عن ضمورها ومئات أعضائها وشدة سمعها وحدة برائنها ونشاطها وسرعة عدوها على شاكلة قوله في إحدى طردياته (٢) :

وَمُخْطَفٍ مَوْثِقِ الْأَعْضَاءِ ذِي أُذُنٍ سَنَاظَةِ الْأَرْجَاءِ (٣)
 كوردة السوسنة الشهباء ويرثن كمشقّب الحداء (٤)
 ومقلّة قليلة الأقداء صافية كقطرة من ماء
 تنساب بين أكم الصحراء مثل انسياب حية رقطاع (٥)

وله طرديات أخرى في الفهد ، وفي قوس البندق ، ويكثر فيها جميعاً من التشبيهات والصور الطريفة ، ومن الحق أنه كان بارعاً في تصوير أي شيء يلم به من كوكب في السماء أو نجم أو سحابة أو رياض وأزهار في الطبيعة المتحضرة أو حيوانات وأطال في الطبيعة المتبدية ، وليس بين المحدثين من وصف الحية وصفه لها في قوله (٦) :

كأنني ساورتني يوم بينهم رقصاء مجدولة في لونها بلق
 كأنها حين تبدو من مكانها غصن تفتح فيه النور والورق
 ينسل منها لسان تستغيث به كما تعود بالسبابة الغرق

وله مراسلات بالشعر بينه وبين إخوانه وهي تكثر كثرة تجعلنا نظن أننا من أوائل من أعدوا لفتح باب الإخوانيات في الشعر العربي ، وهو في طائفة منها ينحو نحو الدعابة . ويكثر في شعره - كما قدمنا - من التفكير في الموت ومصير الحياة

(١) الديوان ص ١٨ وأشعار أولاد الخلفاء

(٣) السوسنة : الزنبقة

(٤) رقطاع : رقصاء أي بها نقط سود وبيض .

ص ٢٠٧ .

(٥) الديوان ص ٣٣٠ .

(٢) مخطف : ضامر . ساقطة الأرجاء :

شديدة السمع .

والشكوى من الدنيا ومن الأصدقاء ، وعللنا ذلك آنفياً بأنها طابع طبيعتها في نفسه نكبتة بأبيه ونفيه إلى مكة في صباه ، وقد ظل يحنُّ إلى سامراء بعد نزوله ببغداد وما لى من بعوضها ونقيق ضفادعها (١) .

وقد تحدثنا في غير هذا الموضوع عن اهتمامه بالشعر التعليمي ونظمه فيه مزدوجة تاريخية صوراً فيها سيرة صديقه وابن عمه المعتضد والأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية لعصره . ولعل في كل ما أسلفنا ما يشهد ببراعته وامتياز به بين الشعراء لعصره .

٥

الصنوبري (٢)

هو أحمد بن محمد بن الحسن الضبي الصنوبري ، وفي بعض المصادر أن اسمه محمد (٣) ، وهو خطأ ، إذ ذكر اسمه في ديوانه غير مرة باسم أحمد ، من مثل قوله معزياً نفسه في بعض الظروف :

أَرْضَ حَكَمِ الزَّمَانِ يَا أَحْمَدَ أَرْضَهُ إِنْ تَذُقْ ضَيْبَهُ فَقَدْ ذُقْتَ مَحْضَهُ (٤)

وَصُحِّفَ لقبه « الضبي » نسبة إلى قبيلة ضَبَّةَ في فوات الوفيات ، فصار « الصنبي » ولا علاقة له بالصين ، إنما هو تصحيف النسخ . أما لقبه الثاني « الصنوبري » فزعم هو نفسه أن جدَّه كان يعمل في دار الحكمة لعهد المأمون فاشترك في مناظرة بين يديه وأعجب به فقال له : إنك لصنوبري الشكل دلالة على ذكائه وحده مزاجه ، ولعل المأمون لم يُرد بذلك إلا سَمَّته وصورته وأن وجهه على

(١) الديوان ص ٤٠١ .

(٢) انظر في ترجمته وأسماءه تهذيب تاريخ

ابن عساكر ٤٥٦/١ وفوات الوفيات

(طبعة محي الدين عبد الحميد) ١/١١١ والواقف

بالوفيات للصفدي ٧/ ٣٧٩ وشرذات الذهب

٣/٣٣٥ ومعجم البلدان لياقوت في (حلب) وديوانه

بتحقيق الدكتور إحسان عباس طبع الثقافة
بيروت .

(٣) الفهرست ص ٢٤٥ .

(٤) الضم : المزوج بالشوائب . والمحص :
الخالص غير المشوب

هيئة ثمر الصنوبر المخروط الصورة ، ويفخر الصنوبري بهذا اللقب لأسرته قائلاً^(١) :

إذا عَزِينَا إِلَى الصَّنَوْبِرِ لَمْ نَعَزَّ إِلَى خَامِلٍ مِنَ العُشْبِ
لَا بَلَّ إِلَى بَاسِقِ الفُرُوعِ عَلاً مَنَاسِباً فِي أرومة الحسبِ

وهو من أهل أنطاكية، ولكن منشأه ومرباه في حلب، ولا ندرى كيف تحول أبوه به إليها ، وقد مضى مثل لداته يحفظ شيئاً من القرآن ويكسب على حفظ الشعر وتعلم العربية ، وكانت حلب مثلها مثل المدن الكبرى في العالم العربي تزخر بعلماء اللغة والحديث والفقه وكان بها بعض الأطباء ، وكانت الكتب على رفوف المكتبات تحت أعين الصبية والشبان. وفي ديوانه إشارات مختلفة إلى بعض العلماء في اللغة وإلى بعض القضاة وبعض الأسر المهمة برواية الحديث النبوي وإلى بعض المتطبيين ، ونراه يذكر أرسططاليس وبقراط في بعض أشعاره^(٢) . وقد يدل ذلك من بعض الوجوه على أنه عكف منذ نعومة أظفاره على الدرس والتحصيل ، وأنه قضى في ذلك شطراً من حياته حتى تخرج شاعراً مثقفاً ، على الأقل ملمماً بالثقافات لعصره ، إن لم يكن إماماً عميقاً ، فإنه على كل حال معرفة واطلاع .

وقد عاش حياته في حلب ، وكان يلم كثيراً بالموصل والرقتين ، وألم بدمشق ، ونجده لا يترك والياً على موطنه إلا ويقدم له مدائح وأشعاراً كثيرة ، وهو يستهل ذلك بمدحيه لِدَكَأ^(٣) بن عبد الله الأعور وإلى حلب منذ سنة ٢٩٥ حتى سنة ٣٠٢ وتحفظ بقية الديوان المنشورة باسم الصنوبري بقصيدة في مديح ابنه المظفر^(٤) يصفه فيها بالكرم والشجاعة ، ويوصيه بشاعر يسمى الطبراني أن يسبغ عليه من كرمه وجوده . وكان هذا الوالي يتخذ يحيى بن محمد التفرى وزيراً له وعاوناً وظهيراً ، وللصنوبري فيه قصيدة طنانة يصور فيها بلاغته وبعوثه لحروب القرامطة والروم ، ويخلف هذا الوالي على حلب أحمد بن كَيْغَسَاغَ القائد المشهور في العصر ويظل

سامى الدهان طبع دمشق الجزء الأول ص ٩٢

(١) الديوان ص ٤٥٦ .

وما بعدها .

(٢) الديوان ص ٢٧٩ .

(٤) الديوان ص ١٥٦ .

(٣) انظر في هذا الوالي ومن بعده كتاب

زبدة الحلب لابن العديم بتحقيق الدكتور

هناك ، ولعل هذه الفن نفسها هي التي جعلته ينأى بنفسه عن بغداد وتقديم مدائحه لوزرائها وحكامها المختلفين . على أنه كان كثير المقام بالرقعة ، وكان يمدح بعض ذوى الوجاهة والنباهة بها ولكنه لم يفكر فى مديح أمرائها الحمدانيين ، إلا إذا كانت هناك أشعار أخرى لم يحملها ديوانه خصصها بمدائحهم .

على أن هذا الجانب يجعلنا نفكر فى شأن تشيعه ، فديوانه يمتلى بمراث لآل البيت وللحسين خاصة ، مما يؤذن بأنه كان متشيعاً حقاً ، وهو يذكر فيه ما يؤمن به الشيعة من أن الخلافة ليست مفوضة للأمة وأنها تنتقل بالوصية من الرسول إلى على وأبنائه ، على نحو ما نرى فى مثل قوله (١) :

جَبَاهُ بِالْوَصِيَّةِ إِذْ حَبَاهُ وَهُوَ ذُو دَنْفٍ

ويبدو أنه لم يكن غالبياً فى تشيعه ، بل يبدو أنه لم يعتنق مذهب الإمامية الاثني عشرية الذى كان قد أخذ ينتشر فى بعض أركان العراق لعصره . وفى ديوانه قصيدة وجه بها إلى جعفر بن على صاحب الزاب فى المغرب الأوسط ، وصلة جعفر وأبيه على بالدعوة الإسماعيلية التى كانت قد أخذت فى الديوغ بتلك الديار مشهورة ، ولكن ينبغى ألا نفهم من ذلك أن الصنوبرى كان على صلة بتلك الدعوة لا فى مقرها الجديد بالمهدية فى المغرب ولا فى مقرها القديم بـسَلْمِيَّةَ فى الشام (٢) ، وقد يؤكد ذلك أننا نجده يهاجم القرامطة (٣) الذين كانوا متصلين بتلك الدعوة حين أغاروا على الحجيج يوم التروية لسنة ٣١٧ وقاتلهم قتلاً ذريعاً ، كما مرّ بنا فى غير هذا الموضع . وربما كان أكثر من ذلك تأكيداً أننا نجده يمدح زيادة الله بن الأغلب صاحب تونس ، بعد أن هزمه أبو عبد الله الشيعى داعية الفاطميين لسنة ٢٩٦ ، وخرج من بلاده إلى العراق وأقام — حسب أوامر الخليفة — بالرقعة (٤) ، وظل بها حتى توفى سنة ٣٠٤ للهجرة (٥) . ونرى الصنوبرى حينئذ يمدحه بغير قصيدة (٦) واو أنه كان على صلة بالدعوة الفاطمية الإسماعيلية ما نظم فيه بيتاً مثنياً عليه أو مادحاً . ونجده

(١) الديوان ص ٣٩٨ .

(٢) فى ديوانه مديح لصديق هاشمى من ساسية

(٣) النجوم الزاهرة ٣ / ١٦٨ .

هو أبو إسحق السلماني ، ولكن ليس فى

(٤) النجوم الزاهرة ٣ / ١٩٠ .

مديحه له ما يصور شيئاً من الدعوة الإسماعيلية .

(٥) الديوان ص ٣١٧ ، ٤٠٩ .

حين يمدح آل البيت يمدح حمزة وجعفرًا الطيار كما يمدح العباس^(١) جد العباسيين . وهو يكثر من مديح بعض الهاشميين من سلالة علي بن أبي طالب ، ولكنه أيضاً يكثر من مديح الهاشميين من سلالة العباسيين أمثال أبي العباس أحد أحفاد الرشيد وله يقول^(٢) :

أَبْنَاءَ الْخِلاَفَةِ مِنْ قَرِيْشٍ وَسَاسَةَ أَمْرِ عَالِمِنَا الْمُسُوْسِ
الْتَنَّمُ مِنْ حُزُونِ الدَّهْرِ حَتَّى تَوْهَمْتُ الْحُزُونََ مِنَ الْوَعُوْسِ^(٣)

وفي ديوانه ما يدل بوضوح على أنه كان لا يزال يترحل من حلب إلى الرقة على الفرات ، حتى لتعد كما نمتا كانت موطنه الثاني وخاصة في أيام شبابه وإدمانه على اللهو وخلعه للعدار . وكان لا يزال يؤم فيها مع بعض الفتيان والرفاق دير زكّي لحمال متزهاته ، ولما كان يجاوره من أماكن الصيد برًا وبحرًا . وكثيراً ما كان يلم بمدينة الرها هناك وكان بها دكان ورّاق يسمى سعداً ، وكان يجتمع فيه بكثير من أدباء العراق والشام ومصر . ومن الرقة حتى دمشق كان ينزل في كل ما بينهما من البلدان ، ولم يدع جواداً أو حامياً من حماة الأدب في تلك الأنحاء حتى قدم له مدائح ، ونستطيع أن نميز بين ممدوحيه عبد الرحمن الجلابي من أهل حرّان بالموصل وابن كوجك في طرابلس وعلى بن سهل بن روح في حمص ، أما الحلبيون فكثيرون من مثل أسرة السبيعيين ، وكان منهم من يعنى برواية الحديث النبوي مثل الحسن بن أحمد السبيعي وله كتاب « التبصرة في فضيلة العترة الطاهرة » ومثل القاضي أبي عبد الرحمن بن أخي الإمام ومثل علي بن محمد بن حمزة العباسي الهاشمي وكان له قصر منيف وبساتين في موضع يسمى فارث ، وله فيه قصائد رائعة ، ومثل أبي عبد الله الكرخي صاحب الخراج . وكثير هم العلويون الذين مدحهم مثل إسماعيل بن الفضل الهاشمي وابنه أبي بكر وحفيده أبي عيسى ومثل طاهر بن محمد ومحمد بن الحسين الهاشميين . وكان يختلط في كل البلدان التي ينزل فيها بشعرائها وأدبائها ، وكان من أقربهم إلى

الصلبة ، والوعوس جمع وعس وهو الأرض السهلة .

(١) انظر الديوان ص ٣٣

(٢) الديوان ص ١٨٥

(٣) الحزون : جمع حزن وهو الأرض

نفسه المعوج الرقي ويقال إنه أستاذه ، وقد توفي سنة ٣٠٧ . وبكاه بمرثية طويلة يقول فيها^(١) :

يا سماء الشعر التي لى عليها كل يوم سماء دمع تفيض
كيف تجنى الأفهام زهر المعاني بعد ماجف روضهن الأريض

ولعل أهم صداقة كانت بينه وبين شاعر الصداقة التي انعقدت بينه وبين كشاجم ، ونظن ظناً أنها بدأت في الرقة ، وكان كشاجم قد اتصل هناك بأبي الهيجاء عبد الله بن حمدان والد سيف الدولة ، فرعاه وصار من حاشيته ، ثم صار من حاشية ابنه ، ورافقه حين ألقى عصاه بحلب ، حتى نهاية حياته ، وكان أصغر سنّاً من الصنوبري ، وكأنه اتخذ منه معلّمه ورائده في الشعر ، فسج على منواله ، في وصف الرياض وفي الحمريات والغزل ، وبينهما مداعبات ومعاينات واستعطافات كثيرة ، وكان الأستاذ دائماً كان حريصاً على رضا تلميذه . وتمنى التلميذ يوماً لو أصره إلى أستاذه في ابنة^(٢) له ، ولعل عالماً لغوياً لم يحظ بصداقة الصنوبري كما حظى على بن سليمان الأخفش الصغير ، وكان قد رحل عن بغداد إلى مصر سنة ٢٨٧ ثم تركها سنة ٣٠٠ مولياً وجهه نحو حلب ، فظل فيها حتى سنة ٣٠٥ . وفي هذه السنوات الخمس انعقدت له حلقة كبيرة بالمسجد الجامع أمّتها الشباب للتحقق ، وكان بينهم الصنوبري ، فلك الأخفش عليه لبه ، وإذا هو ينظم فيه قصيدة طويلة بصور فيها نهله هو ورفاقه من ينوعه العظيم ، بمثل قوله^(٣) :

كرعنا منه في أبحد ر علم غير منزوفه
وطالغنا رياض العبد م بالآداب محفوفه

وتضطره بعض ظروفه إلى أن يبرح محاضراته إلى أنطاكية مسقط رأسه ، فيكتب إلى الأخفش متشوقاً كما يقول ، واصفاً فراقه لهذا الفردوس العلمي ، متمنياً أو ذوات عليه ظلاله . وتمتد به الأيام بعد ذلك نحو ثلاثين عاماً يقضى معظمها في اللهوء ، ويفيق مرة من كثوسه في نحو الستين من حياته فيتمنى لو زهد في الدنيا ومتاعها الزائل

(٢) الديوان ص ٣٧٧ .

(١) الديوان ص ٢٦٢ .

(٣) الديوان كشاجم (طبعة بيروت) ص ٧٩ .

معلناً أنه بلغ السابعة والخمسين وأن له أن يزدجر ويرعوى ويكف عن اللهو وآثامه ،
يقول (١) :

أَلَقْتُ رِداءَ اللهِ عن عاتقِ خمسٍ وخمسون مضتْ واثنانِ

وفى البيت ما يدل على أنه لم يمّت وقد ناهز الخمسين كما يقول ياقوت (٢) ، بل مات وقد ناهز على الأقل الستين ، ولا ندرى هل هجر اللهو فعلاً كما تمنى أو ظل يشرب كئوسه صافية ومزوجة حتى الأتفاس الأخيرة من حياته لسنة ٣٣٤ للهجرة . وكان يعيش على ما يظهر في يسر دائماً ، إذ نراه يذكر - كما يذكر ذلك كشاجم - أن له بحلب ضيعة وبستاناً وقصراً حوله الأشجار والورود والرياحين (٣) . وكثيراً ما نراه يدعو صحابه ورفاقه للمآدب عنده (٤)

وأخذ كثيرون يروون أشعاره وهو على قيد الحياة ، وعنى أحد تلاميذه من الشعراء وهو أبو العباس الصفري برواية ديوانه وعنه رواه القاضي أبو عمر عثمان بن عبد الله الطرسوسي (٤) ، واهتم به معاصره أبو بكر الصولي فجمعه ورتبه على حروف الهجاء في مائتي ورقة (٥) . ولم يلبث الديوان أن دخل الأندلس بعد وفاة صاحبه بنحو عشرين عاماً لعهد الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) . على يد مواطن للصنوبري ترجم له ابن الفرضي في تاريخ (٦) علماء الأندلس ، هو محمد بن العباس الحلي ، وعنه رواه اللغوي المشهور أبو بكر الزبيدي الإشبيلي ، وذاعت هذه الرواية بين أدباء الأندلس ، ونرى ابن خبير يذكر طرقها في فهرسته (٧) . ولم يصل إلى عصرنا من الديوان إلا جزء منه يشتمل على قصائده من قافية الراء حتى القاف . أما الجزء الذي يسبقه والآخر الذي يلحقه ففقدان ، وحقّق الجزء الباقي تحقيقاً علمياً الدكتور إحسان عباس وألحق به ما وجدته في المصادر المخطوطة والمطبوعة من أشعار الصنوبري

- | | |
|--|--|
| (١) الديوان ص ٥٠٣ . | (٥) الفهرست ص ٢٤٦ . |
| (٢) انظر حلب في معجم البلدان . | (٦) تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي رقم ١٤٠٢ . |
| (٣) الديوان ص ٣٤٧ وانظر ديوان كشاجم ص ٧٤ . | (٧) فهرسة ما رواه ابن خبير عن شيوخه ص ٤٠٨ . |
| (٤) انظر مثلاً ص ١٥٥ في الديوان . | |
| (٤) الديوان ص ١٨٧ . | |

ونشر هذا الملحق مع الجزء المذكور باسم ديوان الصنوبري ومعه فهرسه في نحو ٥٨٠ صفحة .

ومن يقرأ في شعر الصنوبري يلاحظ تَوًّا أنه كان يعنى بصناعة شعره وأنه أكبَّ على الشعراء من قبله يقرأ فيهم ويستوعب ويتمثل، وخاصة أبا تمام والبحرئى وابن الرومى وابن المعتز ، فهو أحياناً يكثر من الجناس ومن فنون البديع على طريقة أبي تمام ، وأحياناً لا يذهب بعيداً في استخدام هذه الفنون على طريقة البحرئى ، وهو يكثر من التشبيهات والصور على طريقة ابن المعتز كما يكثر من وصف الطبيعة على طريقة ابن الرومى . وظل يمرن نفسه على نظم الشعر ويروضها على صناعته حتى قال (١) :

ما حلَّ بي منك وقتَ مُنصرَفِي ؟ ما كنت إلا قريسةَ التَّلَفِ
كم قال لى الشوقِ قِفْ لتلثمه فقال خوف الرقيب لا تقفِ
بسطت خطوى كرهاً وقد قبضتُ رجلى عن الخطو شدة الكلفِ
فكان جسمى فى زِيٍّ منطلقٍ وكان قلبى فى زى منعطفِ

فارتضى حينئذ أن يعلن عن شاعريته وأن يقدم أشعاره لمن حواه، والأبيات فيها غير قليل من التكلف فى التعبير ، وخاصة البيت الثانى، ومع ذلك تمَّ عن شاعرية جيدة ، وواضح فيها العناية بالطباق والمقابلة على نحو ما يلاحظ القارئ لبيته الثالث والرابع . وأخذ يسلس له الشعر وأسلم له قياده حتى أصبح من المجلدين فيه البارعين .

وإذا أخذنا نستعرض موضوعات الشعر عنده لاحظنا أنه عنى بالمديح عناية واسعة ، إذا اتخذ شعره متجرأً له ومرجحاً . فهو يقدمه لولاة حلب ونوابهم وأبنائهم ومساعدتهم ، وكثيراً ما يصرح فيه بتنجز الوعود ، وأنه لا يزال ينتظر هبة الممدوح وجائزته ، وأكثر من مديح العباس بن أحمد بن كَيْغَلَخ ، وفيه يقول (٢) :

(٢) الديوان ص ١٦٠ .

(١) الديوان ص ٣٨٨ .

وكَيْغَلغَنِي المجد يُلْفَى مجده
فَرُدُّ الكيان فكفَه من رحمة
أَعْدَى على صَرَف الليالي المعتدى
يوماه ذا عيدٌ وذا عُرْسٍ وإن
يأبى الحجابَ وليس يحجب بشره
عن أعين الندماء والجُلَّاسِ
وَأَلان من طبع الزمان القاسى
تَسَعُ الأنام وقلبه من باسِ
ثَبَّتَ الدعائم محصداً الأُمَاسِ (١)

والأبيات مليئة بالجناسات والمقابلات والتقسيمات، على نحو ما يلاحظ في أحدى والمعتدى والحجاب ويحجب، وفي الكف والقلب واللين والقسوة والعيد والعرس: وكأما كتب أشعاره على أضواء من ديوان أبي تمام، وإن كان لا يبلغ مبلغه في اقتناص المقابلات والجناسات: فقد كان أبو تمام أكثر دقة وأنفذ بصيرة. ولا نبالغ إذا قلنا إن أجود ما صاغه من مدائح صاغه في الهاشميين من عباسيين وعلويين، وأهم هاشمى عباسى أسبغ عليه مديحه على بن محمد بن حمزة الهاشمى، وكانت له - كما مر بنا - ضياع يتوسطها قصر في مكان يسمى فارث، وكان الصنوبرى كثيراً ما ينزل عنده بهذا القصر ويتعم بما فيه من ترف ومن أسباب النعيم ووسائله، وله فيه قصيدة عينية رائعة يصور فيها ما نعم به عنده من غناء بعض الجوارى ومن راح وخمر. كما يصور بستاناً حافلاً بالورود والرياحين وبركة حسناء تنهل فيها النجوم ويتحول إلى مديح ابن حمزة هاتفاً (٢):

ابْتُقُوا بنى العباسِ مابقى الحصَا
لندى يُومَلُ أو لخرقٍ يُرَقَعُ (٣)

ويمدح كثيراً من العلويين المقيمين بجلب وغير حلب. ودائماً يذكر أنهم عترة المصطفى وأنهم الجوهر المصطفى وسراج الدنيا. ومن خير مدائحه في الهاشميين مدائحه لأبي إسحق السلدانى. ويصفه بالعلم الغزير والاطلاع الواسع على الثقافة اليونانية حتى ليرفعه درجات على أرسططاليس وبقرط، قائلاً (٤):

وأدقُّ من رَسْطاليسِ نظراً إذا
ناظرته وأشفَّ من بُقرَاطِ

(٣) يريد بالخرق: الفتنة.

(٤) الديوان ص ٢٧٩.

(١) محصد: قوى متين.

(٢) الديوان ص ٣٢٧.

فِكْرٌ غَدَتْ أَفْصَالَ فِكْرِ كَلِّهَا لَكِنِّهِنَّ مَفَاتِحُ اسْتِنْبَاطِ

والرثاء كثير في الديوان بصورة الثلاث من العزاء والتأبين والندب ، فهو يعزى جعفر بن طاروف عن أخيه^(١) بأن تلك حال الزمان يعصف بكل الأحياء ، وقد يمتما عصف بجرهم وطسم وأقيال حمير وكسرى وقيصر ، ويعزى ابن حمزة الهاشمي العباسي صديقه عن زوجته^(٢) وأن طائراً لم يطر إلا كما طار وقع ، ولا شرب أحد في دنياه جرعة حلوة إلا أعقبتها جرعة مرة . وحزن طويلاً على صديقه أبي إسحق السلماني حين وافاه القدر ، فأبته كثيراً واصفياً علمه وباكياً عليه بمثل قوله^(٣) :

غاب أبو إسحقَ في الأرض بل غابَ سِراجُ الأرض في الأرض
بكتُه عيناىَ وفوق البكا حتى بكى بعضى على بعضى

ومن أروع مرثيه نديه للنبي عليه السلام ولآله ، وهو فيه يتحدث عن ابنته فاطمة الزهراء وعن علي واصفياً مقتله الأثيم ومؤكداً وصية الرسول له بالخلافة كما أسلفنا ، ويذكر حديثه له في غدیر خم وأنه منه بمنزلة هرون من موسى ، ويعرض مقتل الحسين وما صببه في نفوس المسلمين من جزع وكمد . ويخصه بمرث كلاً تفجع عليه ولوعات وزفرات ، ونراه في بعضها^(٤) يصور سيرة جده المصطفى العاطرة ليظهر مدى الإثيم في مقتله ، كما يصور سيرة أبيه علي ونصرتة للإسلام وماله من حقوق على الأمة ، ويبكى مقتله في كربلاء بالقرب من الفرات ، وهو ساغب ، يريد بعض الماء ، فتعلق السيوف من دمه ودم شباب وصغار من بيته كانوا معه ، وتُعول أم كلثوم ومن كان في ركبته من النساء عويلاً مرّاً ، ويندد بقاتليه وفضاعة جريمتهم وما يزال ينُّ لمصرع الحسين وهتك حرمة بمثل قوله^(٥) :

يَوْمَ الْحُسَيْنِ عَلَى الدِّينِ كُنْتُ يَوْمًا عَسِيرًا
مَلَأْتُ وَاللَّهِ كَرْبَاءَ يَا كَرْبَلَاءَ الصَّدُورَا

(٤) أنظر الديوان ص ٢١٨ .

(٥) الديوان ص ٩٥ .

(١) الديوان ص ١٠٦ .

(٢) الديوان ص ٣٤١ .

(٣) الديوان ص ٢٦٥ .

والفاطميون تقرير هم السيوف الطيور
والفاطميات ينحرو ن بالدموع النحورا

وزراه في جوانب من تفجعه على الحسين وآل البيت يتوسل إلى الرسول عليه السلام وفاطمة الزهراء وعلى وابنيه الحسن والحسين أن يكونوا شفعاء له يوم القيامة ، حتى يغفر الله له ذنوبه ، وهو يضيف إلى شفاعة الرسول المقررة عند أهل السنة شفاعة آل البيت ، تشيعاً لهم ، كأنهم ورثوها فيما ورثوه عن النبي صلى الله عليه وسلم . ويلتقى في الديوان تفجعه على الحسين بتفجعه على ابنته ليلي وحيدته كما يقول ، ويندبها في كثير من القصائد والمقطوعات ، وقد امتلأت نفسه شقاء وعناء ممضاً وامتلاً قلبه حسرات ولوعات محرقة ، وما يزال يطلب إلى السحب أن تكسو الأرض من حول قبرها وشياً بعد وشى وحريراً بعد حرير وأزهاراً وأنواراً فائحة العبير ، ويناجيها في رمضان ذاكراً عبادتها فيه وعكوفها على القرآن الكريم ، وكيف تحول العيد بعدها لغيابها عنه مائماً ، ويبكيها في قصيدة ضادية ، ويبكي معها أختها التي ماتت منه في الرقة ، وفي ذلك يقول^(١) :

لنا في الرقتين مضيض حزين وفي حلب المضيض على المضيض

وظل جرُّحه في ليلي لا يرقأ ، وكانت عروساً ، فانقلبت الفرحة حزناً بل كارثة ، وانقلب الرحيق حريقاً يصطلي الصنوبرى بناره ، ويتعذب عذاباً شديداً ، ولا مغيث له ولا ملجأ سوى الدموع والأنات والزفرات وأن ينوح عليها بمثل قوله^(٢) :

يا ربة القبر المضيض الذي يضيء ضوء الكوكب الساري

أشتاق رؤياك فآتي فلا أرى سوى ترابٍ وأحجارٍ

قوى إلى دارك قد أنكرت صبرك عنها أي إنكارٍ

استوحشت دارك من أهلها واستوحش الأهل من الدار

ومن أروع مرثيته في أمه ، وهو من أقدم من رثوا أمهاتهم إن لم يكن

(٢) الديوان ص ١٠٠ .

(١) الديوان ص ٢٦٣ .

أقدمهم ، وهو في رثائه لها يصور شعوراً عميقاً بالحزن ، وقد استهله بقوله : (١)

قد صَوَّحَتْ رَوْضِيَّ المونقة وانشُرَعَتْ دَوْحِيَّ المورقة
ومضى يصور مرضها قبل موتها وكيف كان ين لها أُنِينًا متصلًا . وله مرثية
طريفة لثوب أبلاه الدهر .

وهزَّته بل أثَّرت في نفسه تأثيراً عميقاً فاجعة الحرم المكي الكبرى لسنة ٣١٧
حين هجم القرامطة على الحجاج ، وهم يُهلون ويُلَبِّسُونَ يوم التَّروية فأعملوا فيهم
السيوف في طرق مكة وفي البيت الحرام وهم متعلقون بأستاره ، حتى يقال إنهم قتلوا
منهم نحو عشرة آلاف ، ونرى الصنوبرى يبكيهم بكاء حاراً ، هاتفاً (٢) :

دموعهمُ تجرى خشوعاً وخشية وأرواحهم تجرى على البيض والسمر
وما غُسلوا بالماء بل بدمائهم وما حُطوا إلا من التُّرْب لا العُطْرِ
ومضى يصف القرامطة بالكفر وأنهم لا يعرفون صلاة ولا سجوداً ولا طهراً
ولا وضوءاً ولا صوماً ولا حجاً ولا شيئاً من فرائض الإسلام .

وله قصائد عدة في الفخر ، وهو كثيراً ما يفخر فيها بقبائل قيس والقبائل
المضرية عامة وبضبة قبيلته ، وأيضاً كثيراً ما يفخر فيها بالمصطفى وآله . ونراه
في قافية له يضيف إليه أبا بكر الصديق وعمر الفاروق وخلفاء بني العباس ، إذ
يقول في عدِّ قومه لمنابهم ومفاخرهم (٣) :

عدُّوا النبيَّ الهاشميَّ ورهطه ووزيره الصديق والفاروقا
ولهم خلائفٌ من بني العباس قد أعيوا جميع العالمين الحوقا

وفي ذلك ما يدل بوضوح على أنه لم يكن غالباً في تشييعه ، إذ يرتضى خلافة
الصديق والفاروق وخلفاء العباسيين ، بل يمجدها ويشيد بها في قوة . وله أهاج
كثيرة يملؤها بالفحش ، ومن أطرفها هجاؤه لزوج ابنته ليل التي رثاها طويلاً ، ويباير

(٣) الديوان ص ٤٠٤

(١) الديوان ص ٤٤٢

(٢) الديوان ص ٩٧

أنها توفيت عقب إعراسه بها ، فعدّه طائر شؤم وطالع نحس بغیض ، وهجاه مراراً وتكراراً بمثل قوله (١) :

ألا يابنَ الجُنَيْدِ اسمع وما أنت بذي سَمْعِ
على التَّفْرِيقِ إِمْلَاكُ كَ هَذَا لَاعِلَى الْجَمْعِ (٢)
على التَّعَسُّ عَلَى الغَمِّ على النَّحْسِ على الفَجْعِ
على تَحْرُقُ القلبِ على تَحْدُرُ الدَّمْعِ

وله قصيدة (٣) في هجاء بعض الشمامسة ، يصفه فيها بالشره في الأكل وبععض العادات القبيحة ، وبالثقل حتى إنه ليتفوق على جبل رَضْوَى في ثقله ، وبالشؤم حتى ليوازي البوم في شؤمه ، ومن قوله في ثقل (٤) :

لو مرَّ من ميلٍ توهمتَه قد مرَّ بين العَيْنِ والحاجِبِ

وفي ديوانه معاتبات واستعطافات بينه وبين بعض أصدقائه ، وألطفها ما نظمه في استعطاف صديقه ورفيقه الحميم كشاجم ، وكانا كأنهما روح واحدة في جسدين أو جسد واحد في ثوبين ، فقد جمعت بينهما لحمة الشعر ، ووثقت بينهما من الصداقة ما لا توثقه قرابة الدم ، وله يقول متودّداً مستعطفاً (٥) :

أخ لي عاد من بعد اجتنابِ وفرَّق بين قلبي واكتئابِ
وخاطبني فخلتُ بأن زهر الـ رَبِّي الموشى يُجَنِّي من خطابِ
فقرَّب بين أجفاني وغمضي وباعد بين دمعي وانسكابِ
أتاني أرى منطقه فعقِّي على ما دُقَّتْه من طعم صابِ (٦)

وله غزليات كثيرة ، غير أن كثيراً منها في الغلمان ، وحاولنا - في غير هذا الموضوع - أن نخفف من حدة هذه المثلية السيئة عند الصنوبري وغيره ، فقلنا إن

(١) الديوان ص ٣٤٦ .

(٢) الإملاك : الزواج .

(٣) الديوان ص ٢٠٠ .

(٤) الديوان ص ٤٥٩ .

(٥) الديوان ص ٤٥٧ .

(٦) الأرى : الشهد أو عسل النحل .

والصاب : اللقم .

كثيراً من شعر الغلمان ، إن لم يكن جلده ، كان يُقال على سبيل الدعابة والتندير في أثناء السكر وشرب الخمر . وله غزل في فتيات ونساء كثيرات ، ويغلب عليه التكلف إذ نراه يبحث غالباً عن تشبيه أو صورة ، ومن غزلياته الطريفة قوله^(١) :

تزايد ما ألقى فقد جاوز الحدَّ وكان الهوى مزحاً فصار الهوى جدًّا
وقد كنت جلدًا ثم أوهنتي الهوى وهذا الهوى ما زال يستوهن الجلدًا
فلا تعجبي من غلبِ ضعفك قوتي فكم من ظباءٍ في الهوى غلبتُ أسداً
جرى حبكم مجرى حياتي ففقدكم كفقد حياتي لا رأيتُ لكم فقدًا

ومع ذلك فالقطعة لا تخلو من تكلف ، حين يحوّل الهوى من المزح إلى الجد وحين يصبح واهناً بعد أن كان جلدًا ، وحين يغلب الضعف القوة ، كل ذلك ليأتي بالطباق . وأطرف من هذه المقطوعة مقطوعته التالية^(٢) :

لا النومُ أذرى به ولا الأرقُ يدري بهذين من به رمقُ
إن دموعي من طول ما استبقتُ كلتُ فما تستطيع تستبق
ولى عليك لم تبدُ صورته مُدّ كان إلا صلّت له الحدق
نويتُ تقبيلَ نارٍ وجنتيه وخفت أذنو منها فأحترق

والقطعة مع ما يترقق فيها من جمال يتعمقها التكلف ، على نحو ما يلاحظ في البيت الثاني وتعب دموعه من استباقها وتقاطرها على خديه ، وتعبيره عن عبادته للميكه بصلاة الحدق فيه أيضاً غير قليل من التكلف، وواضح أن الشطر الأول في البيت الأخير مجلوب اجتلاباً ليهي مكاناً للشطر الأخير . وله مقطوعة نظمها في فتاة مسيحية ، تمضى على هذا النمط^(٣) :

لا ومكان الصليب في النحرِ منك ومجرى الزنارِ في الخصرِ
والحلقِ المستديرِ من سبجٍ على الجبين المصوغِ من درٍّ^(٤)

(٣) الديوان ص ٦٣ .

(٤) السبج : قطع الشمر المرسل على الجبين .

(١) الديوان ص ٤٧٢ .

(٢) الديوان ص ٤٣٦ .

وُسُكْرُ أَجْفَانِكَ الَّتِي حَلَفَ الِ فِتْوَرُ أَلَا تُفَيِّقُ مِنْ سُكْرٍ
وَأَقْحَوَانٍ بِفَيْكِ مُنْتَضِمٍ عَلَى شَبِيهِ الْغَدِيرِ مِنْ خَمْرٍ
مَا صَبَرَ الشُّوقُ لِي فَأَصْبِرْ يَا مَنْ حُسْنُهُ فِيهِ قِلَّةُ الصَّبْرِ

ويكثر الصنوبرى من الحديث عن الخمر ووصف كثوسها وسقاتها وندامها
ومجالسها ، يفرد لذلك القصائد والمقطوعات . وقد يضع نعت الخمر في مقدمة بعض
مدائحه ، مضيفاً إليها نعت بعض ليالى الأتس وما كان في مجالسها من غناء
وقيان وجوار معقربات الأصداع . وقد يضيف إلى ذلك وصف البستان وما فيه من
أزهار ممتدة حول القصور ومجالسها . وكثيراً ما يقرن وصف الربيع إلى الخمر ، فهو
ربيع الدنيا وهى ربيع الفرح والسرور في رأيه . ويقرنها أيضاً دائماً إلى الأمطار ،
ولعله أول من قرنها بالثلج وانتثاره في الطبيعة ، وعرف له القدماء ذلك فقالوا إنه
أول من تغنى بالثلجيات على شاكلة قوله (١) :

ذَهَبٌ كَثُوسِكَ يَا غُلَا مُمْ فِيْنَ ذَا يَوْمٍ مُفَضَّضٌ
الْجَوْ يُجَلِّي فِي الْبِيَا ضِ فِي حَلِيِّ الدَّرِّ يُعْرَضُ
أَظْنَنْتَ ذَا ثَلْجاً وَذَا وَرْدٌ عَلَى الْأَغْصَانِ يُنْفَضُ
وَرْدٌ الرَّبِيعِ مَلَوْنٌ وَالْوَرْدُ فِي كَانُونَ أَبْيَضُ

وهو يفرح بهذا اليوم من أيام كانون شهر الشتاء القارس ، الذى يكسو
الأشجار ثياباً بيضاء ، وكأنها تجللى فيها ، فهو يوم من أيام عرسها ، وهو يعب
فيه من كثوس الخمر المذهبة الصافية ، فرحاً بمنظر الثلج على الأغصان ، وكأنما
قطعه في عينه ورودٌ تُنْفَضُ على الأغصان وعلى الأرض ، ورود بيضاء ،
تكسو الطبيعة غلاثل فضية بهيجة . وكان أكثر ما يفرغ لخمرة وطوه ولداته في
الرقه ، وكان يختلف مع رفاقه إلى بساينها ومنتزهاتها على جداول البليخ والهني
والمرى . وله رائية (٢) يصور فيها نزهة في بساين تلك الجداول وفي دير زكى الذى
كان يجاورها ، ذاكرةً قرأها التي كان يتنقل بينها من مثل هرقلته والصالحية

ويطّياس والرافقة وما كان يمتد في المروج هناك من أنوار وأزهار ، ويصف عكوفه على الخمر وسُقَاتِهَا من الغلمان والحوارى ، كما يصف صيده بالكلاب هناك من الغزلان ، وكذلك صيده بالحوارج من الصقور والبزاة للطير من مختلف الألوان ، ويصوّر من معه من الرفاق كما يصور نهر الفرات وسفنه المسرعة . وله وراء ذلك أشعار كثيرة في دير زكّي ونزّهه في بساتينه وخسّعه مع بعض رفاقه للعدار فيه ولهجوم مع بعض فتياته ، على نحو ما يحدثنا في قوله^(١) :

لو على الدبير عجت يوماً لألهة ك فنون وأطربتك فنون
كم غزالٍ في كفه الوردُ مبذو ل وفي الخدّ منه وردٌ مصون
ويبدو أنه ارعوى حين تقدمت به السن^١ بعد الخمسين ، وربما كان لموت ابنته ليلي أثر في ذلك ، فقد صحا من خمره وطوه على موتها في سن البراعم الغضة ، ولعل ذلك ما جعله يعلن أنه كفّ عن النبيذ في حزم وعزم أكيد ، حتى ليقول^(٢) :

كنت أحبّ النبيذ جداً فصار حبّي النبيذ بُغْضاً
فلمست أرضاه لى شراباً والحمد لله لست أرضى

وينظم بعض أشعار في الزهد ، وله فيه قصيدة^(٣) طويلة ، يتحدث فيها عن الموت وعن ذنوبه ومعاصيه وأنه آن له بعد ما اقترف من الآثام أن يرعوى ويكف عن السير في طريق اللهو ودروبه . ويتصل بهذا الموضوع عنده أن نجده يفرّد بعض القصائد لنصائح خلقية وسلوكية في الحياة ، وهو الباب الذي يسمّى في الشعر وأغراضه باسم باب الأدب ، حيث تتوالى النصائح للبصر بالحياة ومسالكها الصعبة ، من مثل قوله في إحدى قصائده التي خصّها بهذا الباب^(٤) :

أضاع الحزَمَ مَنْ أَمْسَى مُطِيعاً طوالَ الدهرِ ذا حَزَمٍ مضاعٍ
وأكثرُ ما استطعت الحلمَ إلى رأيت الحلمَ من كرمِ الطباعِ
ولا تتبعَ أخا سفهٍ ودعْهُ وكنْ للحُرِّ - دهرَك - ذا اتباعِ

(٣) الديوان ص ٣٩٣ .

(٤) الديوان ص ٣٢٣ .

(١) الديوان ص ٤٩٥ .

(٢) الديوان ص ٢٥٨ .

ولم نتحدث حتى الآن عن الموضوع الأساسي في شعره ، وهو وصف الطبيعة التي عاش لَمَها وعاش بها وعاش فيها معيشة جعلته أستاذ هذا الموضوع في العربية . وقد مضى معاصروه مِن حوله وَمَن خَلَفَهُمْ في العصور التالية لا في المشرق وحده ، بل أيضاً في المغرب والأندلس يسرون على هديه فيه ، حتى ضُربَ المثل بروضياته .
 وحَقّاً كان ابن الرومي مشغوفاً بالطبيعة ووصف الرياض في الربيع ، ولكنه لم يَعِشْ لهذا الموضوع معيشة الصنوبري ولا اتخذ له بستاناً يزرع فيه الورود والرياحين والأزهار ويتعهد بها تعهد الحب الوامق كما صنع الصنوبري . فهو بحق شاعر من شعراء الطبيعة ، عاش يتغذى خياله وروحه منها ، واصفناً لحدائقها وبساتينها ورياضها ، حتى ليصبح ذلك كل شغله وكل وَكُده من حياته ، وقديماً عاش تلك المعيشة أبو نواس ، ولكن في الصهباء وكثوسها ودنانها ، مما جعله يُعَلَى وصفها على وصف الأطلال والديار العافية ، وبالمثل نجد الصنوبري يُعَلَى وصف الطبيعة على وصف الديار والأطلال ، في مثل قوله (١) :

وَصَفُّ الرِّياضِ كَفَانِي أَنْ أَقِيمَ عَلَى وصفِ الطُّلُولِ فَهَلْ فِي ذَاكَ مِنْ بَاسٍ
 يَا وَاصفِ الرُّوضِ مَشغُولًا بِذَلِكَ عَنْ مَنَازِلِ أَوْحَشْتُمْ مِنْ بَعْدِ إِيْناسِ
 قُلْ لِلذِّى لَامَ فِيهِ هَلْ تَرَى كَلِيفاً بِأَمْلَحِ الرُّوضِ إِلَّا أَمْلَحَ النَّاسِ

فهو يُعَلَى وصف طبيعة بلاده على وصف الأطلال ، وكأنه أول تعبير قوى عن شغف شعراء الشام بطبيعة ديارهم الخلابّة . ورأيناه في غزله لا يهيم بالمرأة ، وكأنما استأثرت الطبيعة بكل ما فيه من عاطفة ، وشغلته بجمالها الهاجع في الكون عن كل شيء ، حتى لكأنما يعيش لها كل لحظة من حياته ، وفي كل لحظة يصبو لها قلبه ويشتد وجده وتتابع أنفاسه ، ويصور ذلك في قصيدة الأبيات السالفة قائلاً عن رِفاق له في أحد البساتين :

ما كدتُ أكتُمهم وَجَدِي بِزُرْجِسِهِ إِلَّا اسْتَدَلُّوا عَلَى وَجَدِي بِأَنْفاسِي

فهو يجد بالرياض وجداً لا يكاد يشبهه وجد ، وكان يشتد به هذا الوجد في الربيع ، حين تأخذ الأرض زخرفها ويعبق الجو بروائح الأنوار والأزهار ، وتتغنى

الطيور على الأشجار ، وكأنما تتحوّل الرياض في عينيه إلى أعياد وأعراس ، حتى
ليقول^(١) :

ما الدهر إلا الربيعُ المستنير إذا أتى الربيعُ أتاك النورُ والنور^(٢)
فالأرضُ ياقوتةٌ والجو لؤلؤةٌ والنبتُ فيروزجُ والماءُ بُلُورُ^(٣)
تظللُ تنثرُ فيه السُّحبُ لؤلؤها فالأرضُ ضاحكةٌ والطيورُ مسرورُ
حيثُ التفتُ فقمرىٌ وفاخنةٌ يغنيانِ وشفنينُ وزرورُ^(٤)
إذا الهزارانِ فيه صوتًا فهما السُّ رُ نايُ والنأيُ بل عودُ وطنبورُ^(٥)

فالربيع كأنه دكانٌ مليءٌ بالجوهر ، والدنيا مليئةٌ بالبشر والسرور والطيور تغني
ويشدو عندليبان بصوتيهما الساحر ، وكأنما تجتمع جوقة موسيقية تخلب الألباب
بأغانيها الجميلة . ويهتف بالناس أن يفتحوا عيونهم وأبصارهم في الربيع ليروا مفاتنه
ويهتف بصواحيبه من النساء أن يتأملن في جماله الذي يملأ القلوب غبطة وابتهاجاً ،
يقول^(٦) :

يا ريمُ قومي الآن ويحك فانظري ما للربى قد أظهرت أعجابها^(٧)
كانت محاسنُ وجهها محجوبةً فلآن قد كشف الربيع حجباها
وردُّ بدا يحكى الخدودَ ونرجسُ يحكى العيون إذا رأت أحبابها
وكان خرمهُ البديعُ وقد بدا رؤس الطّواوس إذ تدير رقابها^(٨)
والسرورُ تحسبه العيونُ غوانياً قد شمّرت عن سوقها أثوابها^(٩)

فهو يوقظ صاحبه لترى الطبيعة وقد حسر الربيع نقابها ، فبدت خدودها
وعيونها الرانية ورعوسها الزاهية ، وكأنما السرو غانيات أقبلت شمرة عن سيقانها

(٥) السرنای والنای : من آلات الطرب .

(٦) الديوان ص ٤٥٤ .

(٧) أعجاب : جمع عجب .

(٨) الحرم : زهر بنفسجي زاه .

(٩) السوق : السيقان جمع ساق .

(١) الديوان ص ٤٢

(٢) النور : الزهر .

(٣) الفيروزج : الفيروز وهو حجر كريم

أخضر اللون .

(٤) القمرى والفاخنة : من الحمام ، والشفنين

اليمام ، والزرزور : من المصافير .

تريد الرقص في هذا الجو العطر البهيج . ويفرد كثيراً من مقطوعاته لوصف بعض الأزهار ، ولم يكن زهر يملك لُبيته كما كان يملكه زهر النرجس ، وهو أعظم الأزهار في الشام وأكثرها انتشاراً فيه ، وقد تغنى به طويلاً على نحو ما نرى في قوله (١) :

أَرَأَيْتَ أَحْسَنَ مِنْ عَيُونِ النَّرْجِسِ أَمْ مِنْ تِلْكَ لِحْظَةٍ وَسَطَ الْمَجْلِسِ
دُرٌّ تَشْتَقُّ عَنْ يَوَاقِيَتِ عَلَى قُضْبِ الزَّمْرُدِ فَوْقَ بُسْطِ السُّنْدِسِ
أَجْفَانُ كَافُورٍ حُبِينٍ بِأَعْيُنِ مِنْ زَعْفَرَانٍ نَاعِمَاتِ الْمَلْسِ

وهو في كثير من وصفه للنرجس يستهلى بابن الرومي ، إذ كان معجباً به مثله ، ومرّ بنا في غير هذا الموضع أن ابن الرومي أدار مناظرة في شعره بينه وبين الورد ، وقف فيها مع النرجس مُورداً من الحجج ما يؤكد فضله على الورد وأنه يفوقه حسناً وجمالاً ، وكأما أراد الصنوبري أن يعارضه فنظم مقطوعة (٢) نصر فيها الورد ، ثم عاد فأقام معركة بين الأزهار ، حاول فيها أن يتنصر للنرجس ، وفيها يقول (٣) :

خَجَلَ الْوَرْدُ حِينَ لَاحِظَهُ النَّرْجِسُ جِسٌّ مِنْ حُسْنِهِ وَغَارَ الْبَهَارُ (٤)
فَعَلَتْ ذَاكَ حَمْرَةٌ وَعَلَتْ ذَا حَيْرَةٌ وَاعْتَرَى الْبَهَارَ إِصْفَرَارُ
وَعَدَا الْأَقْحُوَانُ يَضْحَكُ عَجَبًا عَنْ ثَنَائِيَا لِثَانَتُهُنَّ نَضَارُ (٥)
عِنْدَهَا أُبْرَزَ الشَّقِيقُ خَدُودًا صَارَ فِيهَا مِنْ لَطْمِهِ آثَارُ (٦)
وَأَصْرَّ السَّقَامُ بِالْيَاسَمِينِ الـ غَضُّ حَتَّى أَذَابَهُ الْإِضْرَارُ

ويمضي الصنوبري على هذا النمط واصفياً القتال بين النرجس والأزهار المختلفة ، وكل منها يبوءُ بالهزيمة أمام النرجس وما يسלט من سهام عيونه الساحرة . وكان كلما وصف بلدة من بلدان الشام وصف طبيعتها الجميلة ، وله في دمشق والرقّة قصائد بديعة ، وأبدع منها قصيدته في موطنه حلب ، وهي أربعة أبيات ومثمة استهلها

(٥) الأتحوان : زهر أبيض في وسطه اصفرار

وأوراقه مفلجة ، ولذلك يشبهونه بالأسنان .

(٦) الشقيق : ورد كبير أحمر .

(١) الديوان ص ١٨٠ .

(٢) الديوان ص ٤٩٨ .

(٣) الديوان ص ٧٨ .

(٤) البهار : نبت أصفر .

بالتشبيب ، ثم أخذ في وصف متزهاتها وقراها ونهرها قويق وبركها ، ثم وصف المدينة نفسها وجامعها وفيه يقول (١) :

حبذا جامعها الجا مع للنفس ثقاها
ومراق منبسر أء ظم شىء مرثقاها
وذرى مئذنة طا لت ذرى النجم ذراها
قبة أبداع بانيها بناء إذ بناها
لو رأها مبتنى قبة كسرى ما بناها

وتحدث عن حلقاتها الأدبية والعلمية ، ووصف الطبيعة حولها وأشجارها وأزهارها وصفاً رائعاً ، وتحدث مراراً عن نهر قويق مصرحاً بضحولة مياهه وأنه ليس فيه شيء من سفن الفرات ولا من تماسيح النيل وإنما فيه فقط نقيق الضفادع . وكان طبيعياً أن يصف الفستق أعظم نُقل تشتهر به حلب وفيه يقول (٢) :

زبرجدة ملفوفة في حريرة مضمنة ذراً مغشى بياقوت

وكانت لديه قدرة على ملاحظة دقائق الأشياء ، ولذلك كان يُحسِّن وصف أى شيء وصفاً دقيقاً ، ومما اشتهر به وعُرف له وصفه لديك الصباح الذى ينبهه وينبه الرفاق معه لخمير الصباح التى تسمى بالصَّبوح ، وكان الشعراء قبله يلتمون به أحياناً ، أما هو فخصه بمقطوعة طريفة وفيها يقول (٣) :

مغرّد الليل ما يألوك تغريدا
لما تطرب هز العطف من طرب
كلابس مطرفاً مرخ جوانبه
ران بغصى عقيق يدركان له
حالى المقلد لو قيسست قلاذته
مل الكرى فهو يدعو الصبح مجهوداً (٤)
ومد للصوت - لما مد - الجيدا
تضاحك البيض من أطرافه السوداً (٥)
من حدة فيهما ما ليس محدودا
بالورد قصر عنها الورد توريدا

(٤) الكرى: النوم .

(٥) المطرف: ثوب من حرير مخطط .

(١) الديوان ص ٥٠٦ .

(٢) الديوان ص ٤٦٤ .

(٣) الديوان ص ٤٧٣ .

وكان كثيراً ما يخرج مع رفاقه للصيد والقنص ، وخاصة في الرقة ، يصيدون بالكلاب الغزلان أو يصيدون بالحوارح طير الماء ، وقد يصيدون السمك من النترات بالشباك ، وكل ذلك نجد وصفه في أشعاره ، وله طائفة^(١) يصف فيها جواده الذي يركبه للصيد وقد جنّ جنونه من السرعة حتى لكأزه حاقده على النضاء ، أما يده فكأنها منبر للشاهين الذي سيطلقه على بَطِّ الماء أو طيِّره ، وفيه يقول :

كَأَنَّهَا مِخْلَبُهُ لِأَذْنِ الطَّيْرِ قُرْطُ

ويصور سرعة مضيه حتى كأنه ستهم يخرج عن قوس ، فلا يكاد يرتد البصر حتى يأتي بصيده . ويركبه إلى وصف ما معه من كلاب الصيد ، مصوراً سرعتها هي الأخرى وهيئتها وانقضاضها على فرائس الصيد من الغزلان وغير الغزلان ، وفيها يقول :

مَوَكَّاتٌ بِالْفَلَا يَطْوِينَهَا طَيِّبُ البُسُطِ .

كَأَنَّهَا آذَانُهُ نَّ مَسْوَسِينَ لَمْ يُجِبْنَ قَعَطُ

كَأَنَّهَا أَجْفَانُهَا عَنِ قِطْعِ الجَمْرِ تَعَطُ .^(٢)

وساعدته حاسته التصويرية على أن يصور كل ما حواه وكل ما يقع عليه نظره ، من ذلك تصويره للجُرْدَانِ والهَيْرِ^(٣) ، وزراه يقدم لذلك بتصوير هيئة كل منهما ، فالهر أحدب الظهر منتصب الرأس ، والجردان دقيقة الخراطيم والآذان والأذنان حادة الأظفار والأنياب ، ثم يتحدث عن إفسادها لكل شيء وكيف تنقب الحيطان والجدران وتصيب من كل طعام وشراب ، والهير لها بالمرصاد ، يقول :

نَاصِبٌ طَرْفُهُ إِزَاءَ الزَّوَايَا وَإِزَاءَ السَّقُوفِ وَالْأَبْوَابِ

يَسْحَبُ الصَّيْدَ فِي أَقْلٍ مِنَ اللَّمَّةِ حِجٌّ وَلَوْ كَانَ صَيْدُهُ فِي السَّمْحَابِ

ويصور لنا فرحه به حتى لقد ألبسه قرطاً وقلادة ، وخضبه بالحناء ، وكأنه عروس مقلدة عقداً نفيساً ، تمشي بأقدامها الحمراء على عُنْتَابِ ، وكل ذلك

(٢) الديوان ص ٤٥١ .

(١) الديوان ص ٢٨٣ .

(٢) تعط : تشق .

فرح بهذا الليث الذي قضى له على الجرذان قضاءً مبرماً . ومن تصاويره قوله في شمعة (١) :

مَجْدُولَةٌ فِي قَدِّهَا تَحْكِي لَنَا قَدَّ الْأَسْلَمِ
كَأَنَّهَا عُمُرُ الْفَتَى وَالنَّارُ فِيهَا كَالْأَجَلِ

وهي صورة طريفة ، ولعل في كل ما أسلفنا ما يشهد بخصب خيال الصنوبري وأنه كان خيالا خالقاً ، لا يزال يرسل الصور الطريفة تلو الصور ، صور تحفل بما يملأ نفس قارئه إعجاباً ، وكان إلى ذلك شغوفاً بالرياض والطبيعة شغفاً ملك عليه حواسه ، حتى أصبح فيه قدوة للعصور التالية .